رواية

مسارب التيه

علي أحمد ناصر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الكتاب: مسارب التيه

الكاتب: علي أحمد ناصر

الطبعة الأولى 2020

لوحة الغلاف: نزار كنعان

تصميم الغلاف: علي ناصر

ISBN 9789933009335

دار الناصر للطباعة والنشر والتوزيع 0947090518

Alinaser86@yahoo.com

إهداء

إلى الطامحين بلوغ قمم دونها متاهات الواقع:

مساربي لي.

ربما لي وحدي.

لا أهاب التيه وحدي

فيها بوصلة ضياع.

ورقة خريف أولى

فهمُ الحياة يشبه محاولة ترجمة كتاب؛ أنت تترجم مستواك وليس مستوى النص الأصل! أعشقها كل الشعاب، سوف أتسلقها مثنى، مثنى، فالقمم شتى.

ثمة من يحارب بالقلب، أشقى الكفاح كفاحي!

هو ادعائي، ادعاء فلاح يصارع الأرض، يزرعها عرق جبينه، ونهايات أعصابه غراس أمل باسقة النماء، بانتظار صيف الحصاد.

سلي فؤادي، بل فؤادَكِ، أيانَ سَكْبُ الخمرِ، وسكرُ عنقودٍ نما إليه ملمسكِ الخفير.

اعلمي أن تلك التي عثرتِ عليها تحت أوراق الخريف، لم تكن كستناءة، بل كانت حُبيبةَ قلبي.

لست أدري؟ لِمَ هما عيناكِ مرآة هذا الكون؟

لا أنتِ من صنعَ الرماحَ، لكنها في رمش عين!

وما نعسٌ يهيمُ بسهادي، تغفين ملء الجفن، وينساني ذاك الضنين.

ما نميرُ الرضابِ، وما هوىً، هوى بي، بذياك الأثير!

وأذوب بشوقِ همسةٍ، نَسَمَتْ، وضاعَتْ، عبقَ عبير!

تجدل صفصافةٌ شَعرَكِ، وعلى خصرها، غُنْجُ حرير!

في طريقي إليكِ، عمرٌ ضوئي، تخطفه عيناكِ، وتغفو رؤاي على حلمي السرمدي.

في الطريق إلى القلب، نسمةٌ عبرت، وعبرةٌ قد لا تعبر!

المسرب الأول

ألف باء

لا شك أن هذه الأرض كانت ملعب كرة قدم، مستطيلة الشكل هي، تنمو بها الأعشاب وتطول ربيعاً، بعض الأعشاب تزهر فلا يقربها خروف صغير أو عجل بقر مستهتر، لا شك أنها نباتات سامة ترمقها عيون المجترات ولا تقترب منها ولو تمتعت بعصائر مغرية.

زرعها الفلاح شعيراً فلم ينبت طويلاً، ولم يعبث به نسيم الغرب ولا هواء الشرق لالتصاقه بالتراب مخافة لحظ حيوان ملَّ نباتات المروج السامة رغم فتنة جمال أزهارها.

عندما جاء الغريب لشرائها، مدحها صاحبها كما يمدح بخيلٌ ابنته الصبية وقد خشي مرور قطار زواجها، بعد أن أثقلته مصاريف طعامها وشرابها أو ظنها سترميه في عوز التسول.

اشترى الغريب الأرض الصغيرة التي لا تشبه ملعباً ولا تنبت زرعاً ولا تساوي لحاظ مراهقة غبية مغرورة بناهدين وقحين برزا على حين غرة من رفاق المدرسة الإعدادية.

زرع الغريب أسرته في هذه البقعة المترامية عشرات قليلة من الأمتار في كل اتجاه، وعاد من حيث أتى وحيداً ليؤسس نصف أسرة تخلو من أبنائه وبناته وزوجته التي ملَّ رفقتها فآثر استبدالها بخادمة على سنة الله ورسوله!

كان زهير أصغر الأبناء ملقى في مركز دائرة ملعب الحياة الكبرى، ينتظر أقداماً تتخطاه للاعبين سيتمرنون بقية عمره على التهديف أو التمرير أو الإهمال.

وجد زهير نفسه وحيداً ذات ليلة متربعاً مع دستة سنواته الأولى في مرج من الأقحوان البري والهندباء المزهرة، تحت نور القمر الفاضح مكنونات منازل قرية "المطب" المتناثرة هنا وهناك، حيث تتعرى عادة للاعتراف لظله الحليم.

كانت طرائف أخيه الأكبر تنطلق بين حين وآخر ترافقها ضحكات زوجته الماجنة، والفرح يكلل نكاتهما البذيئة طلاء وحيداً للمنزل الجديد.

في الطرف الآخر من المرج الصغير كان فانوس الكاز الشاحب يرسم ظلاً هائلاً للوالدة على جدار غرفتها الصغيرة المسقوفة بالقصب المسجى فوقه اسمنت غير مسلح بالحديد، بل ببعض الحصى البحرية، بسماكة سنتمترات خمس لا أكثر.

استيقظت سنوات عمره فجأة وتكاثرت متضاعفة خلال لحظات رأى خلالها حجمه الضحل في مركز العالم الساخر من ضآلته، كسخرية ضحكات أخيه من شخصيات نكاته الغبية أو الماكرة، الحزينة أو الفاجرة.

نظر إلى البدر الساطع بقوة في السماء الصافية، والدموع تنهمر بغزارة على وجهه الأسيل، وهتف بصوت قطعته العبرات، وشهقات القلب الواثب نحو حياة بدأت تغازلها الأشواك، تماماً كما تفعل شويكات المكان:

"إيه، يا ملك السماء، أيها القمر البدر، ترى كل شيء من عليائك، فتعرف دقائقنا، ولا تغيب عن عينيك لحظة واحدة بكل ما يدور حتى داخل النوافذ المفتوحة لهواء الصيف، ولأصوات الخيانة التي تنطلق بضحك متواتر سهاماً تغرز في بطني الجائع، وفي قلبي الموهن، ورأسي الصغير الذي لا يستوعب ما يجري في كون هذه العائلة الشاسع!

أنت أيها الحاكم السماوات بنورك المبهر، ألا ترى الظلم! ألا ترى الوجد!
أمي هناك تبكي خيانة الأيام، خيانة الوفاء الذي أقسمت عليه مهما عصرت الليالي في عينيها حامض عنبها! وأنا ابن العاشرة واثنتين! أشتهي كلمة حنان من أخ احتل مكان الأب في هذه الدار الحزينة! لماذا أنام جائعاً وهو يتلمظ بالفاكهة بعد الدسم الحلم! وهل وُجِدَت الفواكه كي يتفكَّه بها السعداء فقط!
ألهذا تنطلق طلقات ضحكه لتصيب قلبي سهاماً تفطره في العمق؟ لماذا لا ترديني قتيلاً، فأحقق أمنية أمي لنفسها، عندما تناجي الرب أن ينقذها من هذه الحياة بإرادته وحكمته قبل أن ترى بيتها وقد تنازعته الأهواء، فهدير السيل ينذر بخرابه، إني أسمعه الآن مع كل قهقهة داعرة تنطلق من تلك النافذة التي يتوجها الاحترام والإجلال نهاراً!
أيها البدر العالي في ملكوتك! ارتضاك ربي شاهداً فاشهد! إن لم يكن الآن ففي محكمة السماء! هناك حيث أنت، أما أنا فليس لي سوى الانتظار حيث أنا، أنتظر ابتسامتك، فلا تضن بها، أصلي كي لا تضن عليَّ بها!"
–زهير، زهير! أين أنت يا بني!
لم يكن من عادته الابتعاد عن البيت كثيراً، تظن الأم أنه يخشى الظلام، لكن حجم هم قلبها المفجوع حديثاً أنساها تحوله المفاجئ، فالصدمة لم تكن تشملها لوحدها في بيت صغير قد تزلزل أركانه صرخة طفل رضيع! فظنت أنه نائم في الغرفة الأخرى! الغرفة الغربية لم تفصح عنه، فداخلها الرعب، أين يمكن أن يكون زهير، ليس لديه أصدقاء سوى أديب، وليس من عادته زيارته قبل إعلامها، لم يخبرها،

أين هو إذن؟ هل ذهب إلى بيت أخيه! ربما، فهو طفل صغير، قد يرغب ببعض حنان الأب، أفكار تداخلت مع جراحات قلب الأم، جعلتها تمشي متلهفة نحو بيت كنَّتها. في الطريق سمعت شخيراً أخافها لوهلة، خالته شخير قط بري، أو ابن عرس! لكنها فوجئت بزهير نائماً يشخر وقد التوى على نفسه كهر تلسعه نسمات باردة خارج باب بخيل. اقتربت الأم، يسبقها قلبها الكبير.

– يا حسرتي! ماذا جاء بك إلى هنا، قد تلسعك أفعى أو يلدغك عقرب. يا للمسكين! أليس من الحيف أن يكبر يتيم الأب بسبب تلك الملعونة التي اختطفته بعيداً. هجرة الأب يُتْمٌ للأولاد.

تلمست وجنتيه الورديتين بحنان، كان خط الدمع رطباً لم يجف بعد، تلمع قطرتان كبيرتان في محجرين صغيرين كفصي قشرة فستق .مسحتهما بطرف منديلها الأبيض الطويل، وحاولت حمله، لكنها لم تستطع.

– زهير! حبيبي، هيا يا ولدي، انتصف الليل وأنت في الخارج! هيا ننام في البيت !

*

كانت الرحلة من قرية "المطب" إلى حمص مغامرة حقيقية للفتى الصغير، يشعر فيها أنه صار رجلاً يُعتمد عليه. لم تكن المسافة تزيد كثيراً عن سبعين ميلاً، مع ذلك كانت الرحلة تستغرق ساعتين أو ثلاث ساعات بالسيارات العابرة.

استيقظ زهير متأخراً كالعادة، وفي رأسه فكرة السفر إلى أبيه في حمص، علَّه يأخذ بعض الليرات منه ثمن الزيت الذي نفذ منذ أيام، ومؤونة الطعام التي لا تكفي حتى نهاية الأسبوع.

نظر إلى نفسه وهو يتمطى في سريره، إنه جاهز فعلاً. ثيابه ما تزال عليه، فهو ينام ويقوم بها، بعض الماء والصابون يكفي لغسيل الوجه، ولديه ليرتان كاملتان تكفيان أجرة للطريق وللباص الداخلي في حمص، وربما لسندويشة فلافل!

إبريق الشاي وصحن الزيتون جاهزان، ينتظرانه، وضعت الأم قربهما رغيف تنور كوجه قمر البارحة، فيه بعض سمرة يحبها زهير، وفقاعات بنية شهية تجعل بعض الرغيف بطعم البسكويت الحقيقي، وربما كان ألذ من البسكويت المستطيل أو الدائري الذي يشتهيه مع راحة الحلقوم بين وقت وآخر، ولا تبخل الأم بشرائه أن تفضلت عليها بيضات الدجاجات الخمس، رأسمالها الثابت والوحيد!

نظر قلب الأم من عينين لم تغفلا ليلاً وهما تراقبانه يتقلب يميناً وشمالاً، وقالت:

– ماذا رأيت في منامك يا بني؟ عسى خيراً! لم تثبت لحظة على فراشك، خفت عليك كثيراً.

– لم أشاهد أي منام! بالأحرى لا أذكر شيئاً أبداً.

– هيا إذن تناول طعامك فقد شارف الوقت على الظهر! لم أشأ إيقاظك باكراً، فلا مدرسة تنتظرك في الصيف، ولا شيء وراءك، ولم تهنأ بنومك كما خمَّنتُ!

كان بابور الكاز الصغير قد حمي رأسه، وصار لهبه أزرق حاداً، فوضعت الأم إبريق الشاي حتى يسخن عليه أكثر، بينما كان زهير يغسل وجهه قرب حافة البركة المتصدعة أمام البيت.

– أريد السفر إلى حمص!

– لماذا! لكي ترى والدك! لقد تركنا نتعذب هنا، دون رعايته واهتمامه، فلماذا تذهب إليه؟

–لا يوجد فلووس! انتهى الطحين، وهذا الزيتون بدون زيت، لماذا؟

– اسأل والدك! لم يترك "إقة" زيت واحدة في البيت لكي– نتنوزف – بخبز مغموس بها! الزواج أهم من العائلة والأولاد بالنسبة له! الله يسامحه!

– إذن لابد من بعض الليرات لشراء إقة زيت وبعض الزيتون، أو الجبنة، حرام أن نأكل جبنة؟! سأذهب للعمل في لبنان مع أصحابي هذه العام، ولن يمنعني مخلوق، تلدون الأبناء وتقذفونهم في حلق الجوع!

هزت الأم رأسها وهي تتأوه، لم تكن ذات يوم صاحبة قرار في البيت، وصاحب القرار بعيد الآن مع عروسته يأكلان اللحم والأرز المطبوخ بالسمنة البلدية، أين له الشعور بالبطون الخاوية هنا، وكيف يرضى بسفر صغيره للعمل في قلع البطاطا في عكار مقابل الحصول على بعضها؟ أسئلة لم تستطع الأم الإجابة عليها.

– من أين البطاطا يا حسرة!

– من حمص! سأشتري كيلو بطاطا من حمص، هناك أرخص، أبو عبدو يستغلنا هنا، يشتري البطاطا بالشوالات ويحاسبنا بالغرام وبالسعر الذي يريده، أليس هو الدكان الوحيد!

يقولون: "حقه يا عمي حقه"؛ من أعطاه هذا الحق! هل تعرفين؟

كان الخبز المبلل بالشاي يعوض للزوجة الزيت المطلوب مع الزيتون، لقمة من الخبز المبلل تتبعها حبة زيتون مرة، ورشفة شاي مرة ثانية! الزيتون غال، رغم كرومه المنتشرة تحت مساقط نظر العين في كل مكان وعلى مد البصر، ولكن من لا يملك الأرض والشجر، لا يحق له أكل خيرات الأرض والشجر.

صحيح أن بعض الجيران، بل معظمهم يتصدق على الأسرة المنكوبة بشيء مما لديه، لكن الشعور بالحاجة كابوس يحطم كل الصدقات!

اللبن، وبعض الخيار في موسمه، أو الكوسا والباذنجان، خضار أخرى لم يضن بها الفلاحون على الأم وابنها من وقت لآخر، مما جعل الحياة تستمر، وتستمر.

–لا يقطعنا الله يا ولدي! اتكل على الله.

– وهل أتكل على أخي؟ طبعاً أتكل على الله، لكن المدرسة على الأبواب، أريد أن أشتري بنطالاً جديداً، ألا يحق لي أن ألبس جديداً مرة في العمر! الناس يشترون لأولادهم ملابس جديدة كل عيد، فهل نحن بقر! بقر أم بشر!

– اتق الله يا بني ولا تتلفظ هكذا كأبناء الشارع. أنت ابن عائلة كريمة وكبيرة. جدك رحمه الله كان يضع على مائدته عشرين ملعقة، سبعة منها مخصصة للعجايا! لم يجع جاره يوماً، اتق الله يا بني!

– وأين جدي الآن ها؟

وشهق بدموعه فاقتربت وحضنته بدفء صدر عطر بالحنان.

– لا يا ولدي، أبق إيمانك بالله كبيراً! أنت شاب الآن ما شاء الله، من لي في الدنيا غيرك! هيا كل، كل، غداً أوقظك في الصباح الباكر كي تلحق بالبوسطة، وتشم الهواء عند أبيك! الله يخلّيكِ يا حمص عدية! ولا يشمت الأعداء بي!

*

لم تستطع الأم إيقاظ زهير باكراً، كان نومه ثقيلاً جداً، فالسهرات الطويلة بقراءة الروايات أو دواوين الشعر كانت تطيل ليله إذا لم يكن أديب معه! أما في حال تواجد الصديقين فهناك ألف فكرة وفكرة متجاذبة بينهما قبل نومهما متقاربين على ذات السرير. لم يكونا يملان الحديث. عن أي شيء؟ لا تعلم! فكانت تفضّل الابتعاد عنهما، كيلا يزعجهما دخان سيجارتها ولكي تعطيهما مجال حرية أكبر، فأديب شاب مهذب وعاقل ومميز، وكان من الصواب اختيار زهير له صديقاً، برأي الأم.

– صار الوقت ضحى يا زهير، هيا يا عيني، راحت البوسطة الخضراء منذ ساعتين تقريباً أما الزرقاء فمرت بعيد الفجر. كيف ستسافر إلى حمص، إن كانت نيتك بالسفر ما تزال قائمة؟

– بالمواصلات العابرة! إنها أرخص!

– يا ويلي! بالشاحنات أو الصهاريج؟

– لم لا؟

– لا وحياة...

– لا تقسمي ولا تحلفي! أنا أعرف كيف أتصرف.

ضربت الأم كفاً بكف، وهي تتأوه:

– يا عيني يا روحي، السائقون معظمهم مصدر رعب! إنهم يسرقون الأولاد ويبيعونهم لمن ليس لديهم أبناء!

– جميل! قد يشتريني رجل غني! في هذه الحال ستتغير حياتي كلها، ربما يضعني في مدرسة خاصة، ويدرسني في الجامعة فأصبح مهندساً كبيراً أبني العمارات الشاهقة!

لوعة وألم وحسرات تداخلت في مخيلة الأم، تصورت زهير مفقوداً، وهي تبحث عنه في شوارع المدن وأزقتها، تدق كل باب، ولا تصدق فاتحيه، حتى ترى بأم عينها أن لا وجود له في غرفة ما، في الحمام، في السقيفة، على السطح، أو تجده مفقوء العينين لأنهم بحاجة لعينين لأعمى ما في مستشفى ما !

– حذار يا بني، لا تفكر هكذا! أنا مجنونة دون ذلك، أرجوك!

أحس زهير بالفاجعة تغزو عيني أمه فسارع لطمأنتها وهو يضم كتفيها بيديه وصدره:

– أمزح يا أمي أمزح، وهل تتصورين وجودي بعيداً عن ذراعيك! دعيني الآن أذهب، وعلى الله الاتكال.

قبل زهير يد أمه التي سحبتها بقوة من شفتيه وهي تردد: "استغفر الله، أستغفر الله، يا الله! يا رب الملائكة! احمه من كل عدو".

خلال لحظات بدأت رحلة السفر بالانتظار على الطريق العام، سيارات الشحن القادمة من المرفأ بحمولاتها الثقيلة كانت تمر قربه دون أن يرفع يده لإيقافها. يجب أن يختار سيارة خفيفة الحمل، أو صهريج محروقات عائداً إلى مصفاة حمص، سيكون حتماً فارغاً ويستعجل الزمن لكي يعود إلى أسرته أو إلى المصفاة من أجل الحصول على مركز متقدم في دور التحميل. أسرار كثيرة جمعها زهير خلال سفرياته المتكررة إلى حمص، كان يختار نوع السيارة مرة، لونها أو شكلها مرة أخرى، وأحياناً جِدَّتها! لم يكن يفكر بوقت الوصول إلى المدينة أثناء فترة الانتظار، بل كان جل ما يشغل مخيلته كيفية الذهاب، بأية سيارة، وما هي الأجرة التي قد يطلبها السائق منه!

كان يناقش السائقين كثيراً أثناء رحلاته معهم، وكان في كل مرة يشعر كما يشعرون معه تماماً، يدخل كابينة السائق صغيراً لا يتجاوز طوله المتر ونصف المتر، وعندما يتحدث معهم، وخلال ربع الساعة الأول كانت ترد العبارة المفخرة: "أنت أكبر من عمرك يا ولدي، حماك الله."

ها هي سيارة بيك أب صغيرة، جديدة، لا شك أن البحر يُخرجُ سيارات لدول الخليج، سائقها ليس مالكها في هذه الحال. إذن يمكن مناقشة مسألة الأجرة. رفع يده وخلال ثوان وقفت السوزوكي كلعبة جُنَّتْ فرحاً لعبث طفلٍ صغير بها، أو كحلم يقظة لمراهق حالم مثله يستيقظ على حقيقة .

– إلى حمص، كم تريد أجرة!

– طريقي إلى دمشق، تنزل في حي المحطة، الأجرة ليرة واحدة!

– وهل تتوقع أكثر من ليرة! لا يا أخي، نصف ليرة، بليرة أسافر بالبوسطة، حتى الكراج في وسط حمص!

– هيا اصعد، لا أريد مناقشة الأمر طويلاً، بسرعة قبل أن يراني أحدهم.

سيارة جديدة لم تغسل بعد من شحوم المصنع، وجهتها بعيدة، سائقها يوصلها ويعود بطريقته الخاصة، مائة ليرة يحصل عليها خلال أسبوع واحد فقط، يا للربح الوفير. كلمة "يا ليت" لن تزيد عمره عشراً وتعلمه قيادة السيارات بلحظة يتناول بعدها الكبة المقلية والعيران!

سرح خيال زهير بأفكاره الطفولية، كان الهواء يسرح في كم قميصه المشرع من نافذة السيارة الصغيرة التي تتجاوز الشاحنات وصهاريج الوقود كطفل يركض بين أرجل كبار أهله هنا وهناك بكل مرح وسرور.

*

ماذا لو تبناه غني موسر، يمتلك منزلاً واسعاً من الاسمنت المسلح، ويتوسطه درج ملتف حول نفسه كإعصار يشب نحو الأعلى حيث غرف نوم وردية الألوان، والسقوف سماوية الزرقة، رسمت عليها غمامات بيضاء كسحابات الصيف. ومن خلال النوافذ الواسعة تحاول الستائر الطيران نحو الفضاء. لكنها لا تلبث أن تعود بعد سكون الهواء.

في المنزل الجديد مكتبة ضخمة تضم جميع كتب فيكتور هيجو، خاصة تلك النسخة المميزة من رواية "البؤساء" التي سرقها من مكتبة أخيه، واستغرق في قراءتها أربعة أيام كاملة، لم يعرف بسرقتها أحد، فعادت بصمت إلى نفس المكان حيث لم تلمسها يد منذ سنوات.

قرر زهير فوراً: " سأسمي ابنتي الأولى كوزيت!"

نعم، وفي المكتبة أيضاً جميع روايات تشارلز ديكنز ومكسيم غوركي، وإحسان عبد القدوس، وجميع كتب جبران خليل جبران العربية والمعربة معاً.

"لابد أن أخي قد قرأ جميع كتب المكتبة. أليس كبيراً!"

يا للروعة! ربما تكون للأب الجديد ابنة شقراء الشعر خضراء العينين هيفاء القد! من يعرف! ستكون له أختاً رائعة، وسيكون لها الأخ المحب الذي يضحي من أجلها بكل شيء! أو ربما عندما يكبران يصبحان زوجاً وزوجة فلا حليب رضاعة بينهما ولا صلة قربى. لكن المشكلة أن شعور الأخوة سيطغى مع الزمن على أي حب طاهر بينهما. لا يهم، الأخت أخت، جميل أن تكون للولد أخت صغيرة يحكي لها جميع القصص والروايات التي قرأها من قبل، أو قد يقرؤها فيما بعد.

ها هي المصفاة تزفر دخانها، وسمومها المحروقة، يا لها من منشأة شامخة ترحب بضيوف حمص بروائحها القذرة. اللهب الذي يعلو مداخنها يذكره بسيجارة جبارة لعفريت من الجان تصوره للحظة، حاذت السيارة سور المصفاة وبدأت رائحة غاز البوتان تتغلغل ثقيلة في الصدر الصغير. يا لرائحة المجارير المكشوفة في كل

مكان! ما هذا؟ ألا يستطيعون بناء مصفاة النفط في الصحراء؟ بعيداً عن المدينة والناس ومخلوقات الله التي تتنفس!
أفاق زهير من خيالاته على وكز السائق له: "نص ليرة يا أخونا! اتفقنا على نصف ليرة أم نسيت؟"

*

أبنية حي المحطة الغربية متناثرة على شكل فلات لا تزيد أعلاها عن أربع طبقات، تحيط بها الأشجار فتفصلها الواحدة عن الأخرى بساتر جمالي دائم الخضرة.
من هناك وبعد الإشارة المرورية الثانية كان على زهير أن يأخذ طريقه ماشياً حتى ميدان الساعة الجديدة، مخترقاً شوارع عديدة تزداد ازدحاماً مع كل شارع جديد باتجاه مركز المدينة. ها هي الساعة الجديدة تطل بشموخها معلنة قدسية الوقت وبهاء المكان. بنايتا المحافظة والبلدية، تبشران باقتراب سينما حمص، هناك تمتد مكتبته المفضلة التي جمع منها حتى الآن عشرين رواية، معظمها مترجم عن الانجليزية لتشارلز ديكنز راويه المفضل، ربما لتشابه البؤس بين أبطال رواياته من الفتيان مع واقعه.
على حافة السور الإسمنتي للحديقة المجاورة للسينما وفي الأسفل على الأرض كانت الكتب فاكهة متراصة وشهية لا يدرك مذاقها أصحاب البطون!
تقدم زهير، ألقى التحية على البائع باحترام صديق قديم، وبدأ مشوار الاطلاع على الكتب من جديد. يقرأ كل كتاب منها بنظرات سريعة لكن متفحصة ثاقبة، وكالعادة

يسرق عبارة من هذا الكتاب وأخرى من خاتمة ذاك حتى يستقر على قرار الشراء، نعم، "الآمال الكبيرة" تبدو صورة بطلة الرواية رائعة الجمال على الغلاف، لابد أن تكون أحداث الرواية جميلة أيضاً، ترى ما اسمها، ويعيد تقليب الصفحات، اسمها "استيلا" اسم رائع قد ينضم إلى "كوزيت" إذا أعجبته شخصيتها في الرواية، وهذا لن يعرف قبل الغد أو بعد الغد، حين تصبح بعض الليرات في طمأنينة الجيب غير المثقوب!

تعرض دور السينما أفلاماً باهرة العناوين، هل سيتمكن من حضور أحدها! سؤال سيجيب عنه موفور الجيب أيضاً.

ها هي الكبة الشهية تتربع قرب سيخ الشاورما أمام سينما أوبرا، ترى كم يبلغ ثمن القرص الواحد! لا بد أنه مرتفع جداً، ففي داخله لا شك لحم خروف، وهذا ليس من مأكول زهير، ستأتي الأيام وتأكل ما تريد يا زهير!

تنهد بصمت وهو يشيح بنظره عن مصدر الرائحة الجذابة، يبلع ريقه المنساب بغزارة، لكنه لا يستطيع ابتلاع كل اللعاب، فيتسلل إلى رئتيه، فيُباغت بسعال شديد وضيق تنفس، ودموع تغطي ناظريه، لم يعد يرى أمامه، سارع بائع الشاورما إليه بكأس ماء، خذ يا بني، ماذا أصابك! خذ جرعة ماء، وادخل إلى المطعم كي تغسل وجهك. هيا هيا!

المطعم شعبي يبيع الحمص والفول والفتة، رائحة البصل وغازاته التي تعبق الجو في الداخل أعادت حالة اختناقه إلى البداية لكن ماء الصنبور البارد أعاد وعيه قليلاً، نظف أنفيه وعينيه وغسل وجهه، ثم خرج محاذياً سيخ الشاورما الشامخ صاحب

المشكلة الأساسي مع ما يتكئ عليه من أقراص كبة كبيرة! رمقها على حذر وانطلق نحو محطة الباصات الداخلية قرب عمود الساعة القديمة.

*

كان الشيخ محمد يحظى بحب وإجلال الجميع، بفضل اسمه الراجح بين رجال الدين الذين يحترمون قفاطينهم. لم تكن مواعظه تقتصر على خطب الجمعة التي كان يرتجلها بعربية بليغة، وأمثلة مقنعة من آيات وأحاديث وحكايات من الكتب المقدسة كلها، بل كانت تجذب المريدين إلى بيته المكون من غرفتين فقط فصار جامعاً هو الآخر، يكتظ فيه الزوار من طالبي المعرفة والفقه أو الدعاء والبركة.
غرفة المنزول هي الأوسع، لذلك هي للضيوف، فرشت بمدَّات من الإسفنج المضغوط والقطن، تحيط بها مساند من القش المحشو داخل أكياس قماش سميك نقشت عليه بعض الرسوم الهندسية المحاكة يدوياً بخيطان ملونة زاهية.
كان الجدار عار إلا من صورتين لشيخين جليلين هما الجد والأب يمنحان المكان مهابة وإبهاراً منطلقاً من لحيتين بيضاويتين كثتين ووقار عظيم.
الشيخ وأربعة من ضيوفه يتحلقون حول طبق دائري من القش عليه طعام الغداء. بينما كان هناك شابان ينقلان الطعام والماء والمرق وبعض الأطباق الملونة بأنواع متعددة من الأصناف من المطبخ، لم يلبثا أن حشرا نفسيهما بين الآخرين للمشاركة بالأكل.

في هذه الأثناء كان جرس الباب يقرع.

قال الشيخ: أحب هذا الطارق مع بداية الطعام.

نهض أحد الشبان بسرعة هامساً :

- سأفتح الباب.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. تفضل!

لم يعرف زهير الشخص الذي فتح الباب له، كذلك الحال كان مع الشاب، مع ذلك أصر بتعجيل دخول الضيف الصغير فالطعام على المائدة، والجميع بانتظار معرفة هوية الطارق الجديد.

-لا سلام على الطعام، هذا ابني زهير، تفضل يا ولدي خذ مكاناً لنفسك.

قبَّل زهير يد والده وجلس في الفرجة الكبيرة التي فسحت له حول الطبق.

اتسعت حلقة المائدة، وقدمت الأطباق أمام ابن الشيخ والكل يرمقه من طرف عينه!

-زهير هو صغير أولادك يا سيدي الشيخ. أليس كذلك!

-نعم ، نعم.

كان البرغل الأبيض المغطى بلحم الدجاج المسلوق يحتل الطبق الأكبر في الوسط، بينما توزعت صحون صغيرة من لحم الدجاج المقطع والمقلي مع كمية كبيرة من البصل وزيت الزيتون وأقراص الشنكليش والزبدة العربية عدا عن زبادي اللبن وبعض شرائح الخيار والطماطم.

قرأ الشيخ الفاتحة وبعض الأدعية التي تشكر الله عز وجل على نعمه التي لا تحصى، ومنها أن جعل هذا الطعام حلالاً لآكليه، وصلى على النبي العدنان وجميع رسل وأنبياء الله وعباده الصالحين من بداية الخليقة إلى يوم الدين، وكرر حمد الله والثناء على منِّه، ثم بسمل داعياً الجميع للشروع في الطعام.

كانت طقوس حديث أبيه الشيخ مثيرة جداً لاهتمامه، ذكر الله ورسوله هو الوحيد المسموح به، قد تحتل السياسة بعض الوقت، لكن ليس أكثر من تعليقات بعد نشرات الأخبار المحلية أو من مونت كارلو أو البي بي سي. فالوقت وقت حرب، تقول ذلك جميع التحركات في الشوارع وعلى ساحات التدريب المكثف، أو حتى من إذاعة العدو.

انتهى الجميع من الطعام، وكان بمقدور زهير البقاء لساعة أخرى عله يعوض بعض جوع قديم له أو عن أمه.

– زهير بطيء جداً بالطعام، هو كذلك منذ الصغر يأكل كالعصفور، ويفتت الخبز أمامه، لو وضعتم كتكوتاً أمامه لشبع من فتاته! كل يا بني لا تخجل، فقد أتيت متأخراً وكنت على سفر.

لكنه وقف حامداً الله على نعمه، وبيده بعض الصحون استعداداً لنقلها إلى المطبخ، لكن صوتاً جعله يرتجف في مكانه، وكادت الصحون تسقط من يديه النحيلتين.

– أقسمتُ بالله، لن تأخذ صحناً واحداً يا ابن عمي! ماذا نفعل نحن هنا؟ اغسل يديك وتعال حدثنا عن الساحل وأهل الساحل!

نظر زهير حوله محبطاً، ثم انطلق إلى باحة الدار يغسل يديه بالماء والصابون المعطر الذي يستخدمه أهل المدينة فقط. وعندما عاد كان الجميع يتحلقون حول أبيه كمن يتابع درساً صعباً في فقه الدين! وقد نسي الجميع أنه كان يحضر نفسه للإجابة عن أسئلة ادَّعوا انتظار أجوبتها منه!

أنصت زهير بقلب مفتوح وذهن متوقد لدرس في السيرة النبوية الشريفة، ألقاه بحنكة المعلم والده الشيخ على أسماع ضيوفه كباراً وشباناً يزيده أصغرهم بضع سنوات!

بعد رحيلهم جلس الأب إلى ابنه يبثه شكواه:

"مات والدي وكنت أصغر منك سناً. وعشت ملازماً أخي الشيخ محمود رحمه الله. ولولاه لما كنت على ما أنا عليه الآن من وعي وإدراك لأمور ديني، غير أن الفقر كان مشرعاً سيفه على رقبتي منذ الطفولة فطردني من مسقط رأسي إلى الديار الشرقية، حيث أهل الكرم والإيمان والثقة المفرطة بقضاء الله وعدله، هنا استطعت أن أبني لكم بيت عز وشرف وإباء. لكن أولادي سلطوا عليَّ أيضاً سيف العقوق، رفضوا زواجي الثاني، حتى أنت رفضت ذلك كما قال كبيركم، وهذا ما آلمني أكثر! الفقر والزوجة والأبناء اجتمعوا ليقتصوا مني، لماذا؟ لماذا؟"

لم يجرؤ زهير على الرد، وكيف يجرؤ وهو الطفل الذي ما استطاع حتى اللحظة النظر بعيني والده بشكل مباشر للتحقق من أنهما خضراوان مشوبتان بالزرقة أم العكس!

صحيح أنه لم يرض عن زواج أبيه، لكنه لم يصرح بذلك لأحد، ولم يجب على سؤال أخيه الكبير عندما دبج رسالة عقوق للأب بسبب الزواج من ثانية غير أمهم أو لأسباب أخرى لا يعلمها زهير.

ما هي مصلحة الكبار بالكذب! وهل يستطيع اتهامه بالكذب وهو الأخ الأكبر!

تململ على طراحته دون أن ينبس بحرف واحد! كيف له معارضة أبيه العالم العارف، ومهما كان يحب والدته فالأمر بين الكبار يفهمه الكبار فقط، هذا ما يؤمن به، لكن لا لسان له أمام أبيه، خوفاً من غضبه، أم خشية من عصبية قديمة قد تشحذ نظرات عينيه فينطلق شررهما. لم يقر إلا الصمت، لا مجال لمناقشةٍ مضمونة الخسارة من ناحيتين وليس من واحدة، فالأمر المحسوم أن الزواج قد تم، والزوجة تقرقع الصحون بغسيلها في المطبخ، أما الثانية فاحتمال منع المصروف، وليس لديه أجرة طريق العودة إلى الأم المنتظرة على نار.

*

اشتراها والده كبيرة المقاس لأسباب كثيرة لم يقنعه واحد منها! إنها من الكاوتشوك! رخيصة، واسعة وطويلة العنق!

"أقسم لو رسبت في الصف لاتهمتها! هي سبب تخلفي في كل شيء، حتى في سرعة الركض، لثقلها واختفاء قدمي فيها، فكيف عند تحريكها؟ !

هي سبب تأخري عن المدرسة يومياً لخجلي من منظرها.

هي سبب خنوعي أحياناً أمام الطين، لتثبيتي بالوحل الذي تغوص فيه، وعنادها الطويل بالبقاء في بقع مياه الأمطار، بينما تهم أقدامي الطرية النحيلة بالخروج منها نحو المدرسة!

عنقها الطويلة تعقر ركبتي وتحفر صابونتيهما! ماء المطر السائل عن سروالي داخلها يشكل بركة داخلية أخوض فيها أثناء المشي كما عند الوقوف! وتبقى صافية إلا من بعض صباغ قد يهرب من لون الجوارب الرخيصة!

الطريق تمتد إلى اللانهاية قبل الوصول إلى (الفزرة) التلة التي تفصل السهل عن الوادي الذي تتوسطه المدرسة! حيث تقبع وحيدة هناك!

الطمي في وسط الطريق لزج وخطير! ومسارات عجلات الجرارات الزراعية العميقة تخفي نصف قامة أي تلميذ منا في طريق المدرسة!

– امش على الحافة المعشوشبة! لا طين هناك ولا خطر من التزحلق في مسارات إطارات الجرارات الزراعية الضخمة!

اغتنم فرصة توقف المطر وأطلق لساقيك العنان!

بيت الشيخ حامد المهجور هو المظلة الوحيدة من المطر، وهو المصد الفريد للريح الشرقية !

وازن بين سرعة الرياح الحاملة للغيمة القادمة وسرعة ساقيك!

المعركة شبه يومية مع الرياح والمطر ووحل الطريق والأميال الثلاثة حتى المدرسة.

معركة تجيد قيادتها! ليست السنة الأولى وليست الأخيرة على هذه الطريق!

المظلة تمزقت وقضبانها المعدنية تشوهت وما تزال تتشبث بها؟!

ثمنها خمس ليرات! من أين تأتي بخمس ليرات يا ولد! أعد المظلة وسوِّ اعوجاج أسياخها، تنفعك في الأيام الهادئة من رياح ترسلها لك سيبيريا محملة بالصقيع الكافر وذرات المطر الإبرية!

الجزمة هي السبب!

تنهض فيها رجلي مرات ومرات قبل أن تخرج من طين الطريق، تعقرت قدماي وركبتاي وسال الدم الحار على برد الجزمة وما تزال واسعة رغم كل التورمات التي سببتها!

حتى ظهري تألم وشكت فقرات عمودي الفقري جهد الخروج من طين ظننته سهلاً! ولكن اخش السهل حتى تتأكد من سهولته! لا تثق بأحد قبل اكتشاف كل أسراره!"

يا لها من ذكريات!

تنهد زهير وهو ينهي قراءتها من دفتر قديم.

المسرب الثاني

الصراع من أجل الصمود

بناء عال، شامخ يكاد ينطح غيوم العاصمة، بوابته المشرعة ضاقت على الشهادات العالية لطالبي العمل .

صرخ موظف الذاتية:

–هل تريد أن تصبح وزيراً! هيا ارحل، فتش عن رزقك في مكان آخر! قلت لك ألف مرة لا يوجد وظائف شاغرة، لا يوجد شواغر، أي ليس لدينا مكان لشهادتك المحترمة! الناس يدفعون مئات الآلاف ولا يستطيعون الحصول على شاغر مستخدم !هيا عد إلى حيث كنت، والله عجيبة!! يتركون العز في أوروبة ويأتون! أية عقول يحملون؟

أُوصدت بوجهه بوابات الدوائر الحكومية الحديدية، فوجد نفسه في دوامة البطالة.

"أين الشعارات التي حلمنا بتحقيقها؟ الرجل المناسب في المكان المناسب، أين هذه المقولة من تلك البوابة الحديدية؟"!

ببراءة تلميذ نفذ جميع الوصايا وفهم كل النصائح.

كان زهير يفكر بألم الصدمة الأولى، الفاجعة التي لم يصدق وقوعها يوماً، كان رفاق الدراسة في أوروبة يسخرون من سذاجة توقعاته، ويتهكمون على طموحاته:

– ستُعين في المطاحن، هناك يمكنك التخطيط على بياض!

– وما العيب في ذلك؟ يمكنني العمل في أي مكان يحتاج لمعارفي!

أين المطاحن الآن؟ لا مطاحن ولا مخابز تقبله موظفاً فيها، هل اكتفى البلد من المخططين؟ هل أصبحت خططنا ناجحة في التطوير والتحديث؟ لِمَ يسبقنا العالم عشرات السنين من التطور والتقدم والبناء الصناعي والتقني؟ أليس خطأ التخطيط، إن وجد، أليس هو السبب؟

كانت الحكومة ترسل مندوبين إلى بلاد الحضارة تلك لدراسة التطور هناك والعودة بأفكار واقتراحات تهدف لتحسين الانتاج الزراعي والصناعي والتقني، وكان زهير يلتقي بوفود عديدة، يقدم لهم العون في الترجمة والزيارات الرسُميَّة ، لكنه تخاذل كثيراً عن الاستمرار في المساعدة عندما يطلب رئيس وفد ما الحصول على فتاة ليل!

توقف في وسط الرصيف شارداً، فصدمه المشاة خلفه، إذ عرقل سيرهم العَجِل!

هتف زهير وهو يتنهد ويصفر بعجب:

– ترى؟ هل أبو العز هو السبب؟ له صولات وجولات في السلطة، ولا شك أنه يجمع التقارير بانتظاري! لعن الله النسوان ومشاكلهم وكل دنيء يلهث خلفهن!

كان أبو العز يرأس وفداً رسمياً ذات يوم، وفي روما تعرف على زهير في المطار. سر الاثنان بالتعرف على بعضهما، رسول الوطن للمعرفة والتطوير وطالب دراسات عليا ينهي سنته الأخيرة بدراسات استراتيجية موضوعها "تطوير الاقتصاد في البلدان النامية. سورية –مثالاً".

تناول الغداء على مائدة الآخر أعضاء الوفد المبهورين بكل شيء خاصة الشقراوات.

بعد أيام من بناء ثقة كبير فوجئ زهير بالطلب الحقير:

-أمَّنَّا الحريم في الفندق، تحت القفل و المفتاح، والدور عليك يا شاطر، أنت الآن ابن هذا البلد اللطيف، اشتقنا لِلَّحم الأبيض، وأنت لاشك خبير بالبئر وغطائه.

صعقت المفاجأة زهير، فوقف يرتجف أمام كرش رئيس الوفد الغائر في كرسيه وقد تملكه الخمر، ورفع عقيرته بتوبيخ لم يتوقعه أحد من أعضاء الوفد الذين اختفوا خلف الطاولة كصيصان تخشى باشقاً يجوب السماء، حتى زبائن المطعم الفخم فوجئوا بصراخه، وهو يوبخ مضيفه بعصبية زائدة، ثم يخرج يرتطم بكل ما يعترض طريقه.

- أنصحك بعدم العودة إلى الوطن، إذا أردت النجاة من فعلتك أيها المثقف الكريه!

*

تذكر زهير أيضاً قصة قميص ابن المختار الأحمر، تلك القصة المشؤومة التي طردته من الوطن، وكان هروبه مفتاح فرج لم يستفد منه كثيراً.

عاد بذاكرته يوم اجتاز امتحان الثانوية بتفوق على مستوى القطر، يومذاك كان من المكرمين في بيت المختار، مختار "بيت الياسمين" الاسم الذي حولته فعلته الشنيعة بارتداء القميص الأحمر إلى "المطب" بأمر الرجل المسؤول نفسه، أبي العز ذاك.

حضر مندوب الحكومة لتكريم الطالب زهير عبد الوارث، وكانت كلمات الترحيب جاهزة من قبل المختار وأوادم الضيعة ومدير الناحية وجميع المسؤولين.

لكن زهير تأخر بالحضور!

فتش زهير عن قميص مناسب لارتدائه في هذه المناسبة فلم يجد! جميع قمصانه باليه، خجل من ارتداء أحدها، فتوجه إلى فارس ابن المختار، الشاب المتيم بجميلات القرية، وكان يحفظ قصائد زهير ويلقيها على مسامعهن، أو ينسخ أشعاره ورسائله ويرسلها لهن باسمه.

حان الآن موعد تسديد ديون زهير من قبل فارس.

ذهب بسرعة إلى صاحبه طالباً قميصاً جديداً من قمصانه الكثيرة كي يرتديه ويقابل به المسؤول، وكان الجواب مطمئناً، خذ القميص الأحمر، إنه جديد، ومناسب.

خاف زهير من لون القميص، وصرح بذلك لصديقه:

– يا رجل ما هذا اللون؟ أحمر! أتريدني أن أرتدي قميصاً أحمر؟ الأحمر للبنات وليس للشباب.

– وهكذا ستهجم عليك الصبايا يا غشيم! بصراحة، أنا لا أعيره لأي كان غيرك، أفضالك سابقة أبو الزوز! خذه تمتع به، وليكن هديتي لك، رُحْ يا عمي نقشت معك! مبروك!

ارتدى زهير القميص الهدية فصار لون وجهه أكثر احمراراً منه. خال جميع الناس عيوناً تنتقده في الطريق إلى مضافة المختار، وهو يحمل الجريدة التي تحمل اسمه ودرجات نجاحه في الثانوية العامة.

كانت المضافة تعج بالوجهاء من مركز المدينة، سياسيين ومثقفين ومسؤولين ومباحث، بالإضافة للمدرسين الذين حضروا لينالوا كلمة شكر لتربيتهم الناجحة وتعليمهم المميز اللذين أنتجا زهير عبد الوارث.

دخل زهير بزهو ينكصه من حين لآخر لون قميصه المخجل، أحمر؟ ومنذ متى تلبس اللون الأحمر أيها المراهق الكبير؟ كنت تقرع فارس لألوان ملابسه الزاهية، وها أنت تلبس اليوم قميصاً أحمر!

وسط الصالة الصاخبة بالضحك والهرج تقدم زهير وعيون الإعجاب تحيط به، تقدم ببطء شديد، وكان يظن نفسه قد اخترق المكان بسرعة صاروخ.

جميع الآباء كانوا يرون به ابنهم المثقف النبيه، صاحب المستقبل المشرف للقرية، كلها بل للمحافظة وربما للبلد كله، أليس هو الحائز على المركز الأول في البلد وقد أوصى رئيس الجمهورية شخصياً بتكريمه!

نظر المختار بحسرة، وقال لنفسه:

"أين أنت يا شيخ محمد، لترى ابنك يكرم على أعلى المستويات، وأنت غائب، ربما لا تعلم ماذا نفعل الآن!"

"قف مكانك!"

صرخة مدوية، حولت الضجيج إلى صمت، والصمت إلى دهشة.

إنه المسؤول السياسي الأكبر.

– ماذا تفعل هنا أيها الشيوعي الأحمر؟

ووجه سبابته الغليظة نحو زهير.

تلفت زهير حوله يبحث عن الشيوعي المتهم، فلم يجد أحداً لا يعرفه، وكذلك فعل الآخرون.

– عميان أنتم جميعاً، أين تنظرون أيها الحمقى؟؟

بحث الآخرون بعيونهم فلم يجدوا أحداً غريباً. وحده مدير المدرسة حمحم ولمعت عيناه بذكاء لم يورثه لابنه الحائز على علامات ضعيفة في امتحان الثانوية، وكان ينظر بعين الحسد والاشمئزاز لزهير اليتيم الفقير المشرد وهو يحصد علامات النجاح بين يديه وأمام عينيه، دون أن يستطيع فعل أي شيء لابنه المدلل.

كانت أوامر المدير صارمة في تحطيم علامات زهير في الصفوف الانتقالية، بالضغط على المدرسين المتملقين، كي يساوي على الأقل بين نتائج ابنه ونتائج زهير.

وقف السيد مدير الثانوية متمايلاً وهو يمسح غرته الطويلة المصبوغة بالسواد، وحمحم ثانية وقال للجميع:

– يا جماعة ألم تفهموا قصد الرفيق؟؟ الشيوعي أيها الناس هو من يرتدي العلم الأحمر على شكل قميص، إنه صاحب القميص الأحمر؟ إنه زهير طبعاً.

–أنا الشيوعي؟

صرخ زهير بصوت لم يسمعه أحد، بحته غطت رجولته.

–أخرجوا هذا الشاب الشيوعي من هنا قبل أن أضعه في السجن بنفسي. في تجمعنا الشريف هذا ممنوع على الشيوعيين الملحدين التواجد.

– لكن سيدي هذا هو من جئتم لتكريمه..أ..أ.

– أرجوك يا مختار، كلامي واضح تماماً.

– وهل تريد إزعاج الرفيق يا مختار؟ بيعنا سكوتك!

قال المدير كلماته تلك مكبراً بنفسه قيمة لسانه الذي لا ينطق إلا عن جواهر الحكم.

أُخرج زهير بقميصه الأحمر الممزق من شد رجال الشرطة له وألقي به في الخارج، هناك صادف فارس صاحب القميص فخلعه بوجهه والدموع تطفر من عينيه الحارتين.

– خذ قميصك، لعن الله تلك الساعة التي جئتك بها من أجله، أعرف أنني ملعون منذ ولدت، فلماذا التكبر على حقيقة الأمر الواقع؟

– هدئ من روعك يا صاحبي، كله يهون، المهم الآن يجب أن تهرب فوراً، هذا الرفيق قد يتذكرك بعد قليل ويطلب زجك بالسجن. كان أبي يردد دوماً لنا حكاياته القذرة، قد تكون أنت رشوة منه لرفيق أكبر ويتهمك بانقلاب أو مؤامرة. هيا، ما لك إلا لبنان. الهرب، ثم الهرب.

في لبنان، كانت الأحزاب تتصارع في الشوارع بشكل أكثر جرأة وعنفاً، وهناك كان شيوعيون حقيقيون بانتظاره. لم يتوقع زهير أن تصل أخباره قبله إلى بيروت، فقد فوجئ بطلاب سوريين في الجامعة الأمريكية يحيونه ويروون قصته ويحيون فيه جرأته وتحديه للجميع بارتداء القميص الأحمر، رمز الشيوعية الأفضل ومقابلة أكبر مسؤول في المنطقة به.

وفجأة وجد نفسه في إيطالياً يدرس على حساب منظمة خيرية لبنانية، لم تستمر طويلاً في دعمه.

إنه أمل أحمر قادم إليك يا سورية!

إنها فعلتك يا أبا العز! وسوف تندم عليها.

*

في الشارع، التقت عيناه بعيون حادة وشرسة، وبأخرى نائمة ، أو لامبالية لأصحاب متاجر يصطنعون يقيسون طوله!

– قد يكونون من أتباع أبي العز! يا للمصيبة، نسيته ونسيت قصته، هل من ذباب أزرق سيجدني في مكان موعود!

"من أنت يا زهير كي يضعك أبو العز على قائمته السوداء؟ ومن هو كي يملك الحق بقائمة سوداء أو بيضاء؟ دع الخلق للخالق يا أخي".

تابع زهير جر قدميه المتورمتين من السعي في شوارع العاصمة وهو يهلوس بمشكلته مع أبي العز وإمكانية ورودها مورد الحقيقة والتهويل والقدر!

*

رائحة الفلافل تنعش الشارع عرضاً وطولاً، تنشَّقها بقوة فامتلأت رئتاه برائحة الزيت

المقلية فيه أقراص الفلافل، صرخ شيء في أحشائه، ذكره بطفولة مرة كانت (ساندويتشة) فلافل وقتذاك كحلم الكافر بالجنة بسبب قروشه المفقودة!

توجه إلى محل الفلافل، الإغراء فاحش هنا، أقراص كبيرة ذهبية اللون، تتوزع حبيبات السمسم على أطرافها، قرص كبير شهي غمسه البائع بصلصة الطحينية بالثوم وقدَّمه لعينيه الجشعتين:

– تفضل أستاذ، بالهنا والشفا!

تردد قليلاً قبل أن يمد يده بخجل، تناول القرص الشهي ولعابه يكاد يسيل من فيه، قال لنفسه:

"لا يهم سأدفع ثمنه مهما كان!"

تلمظ باستحسان، فتحولت عيناه نحو البائع بامتنان كبير أسعد البائع فضحك وهو يرحب بالزبون الجديد.

– مئة أهلين أشتاز(أستاذ) تذكر أنك تأكل أفضل فلافل في البلد، فلافل أبو العز.

تراجع زهير للخلف مرعوباً من الاسم الذي نزل عليه كالصاعقة، غص باللقمة وباللعاب وكاد يختنق، سعل بقوة وطفرت من عينيه الدموع وتناثرت السوائل من فمه وأنفه!

فقد للحظات أحسها ساعات كلَّ إحساس بالأمان والسلام! تقدم منه أبو العز بائع الفلافل، وهو يربت على ظهره بقوة:

-سلامتك أشتاز(أستاذ) أرعبتنا عليك، اسم الله عليك، شو صار بالدني (بالدنيا) والله أعرف أنها أطيب فلافل بس مو للموت (لكن ليس لحد القتل) ، محسوبك أبو العز على حد السيف! سندويشتك ببلاش ولا يهمك!

*

– تركت أوروبة لتأتي إلى فتات بلدك؟ مجنون لا محالة!

– وطني يا ناس، وطني، أفديه بروحي!

– وتبيع الوطنيات أيضاً؟ تبيع الماء في حي السقائين؟!

سخروا منه وطردوه بعيداً عن أسوار الدوائر الحكومية.

عاد إلى بيت ذويه الذي لم يستقبله أيضاً بما توقع! " لماذا تغيرت يا وطن! لماذا تصد قلبي وعقلي وعلمي الذي طلبته مني قبل سنوات الغربة المرة، لماذا؟ لماذا؟" تساؤلات تقلقل ذهن الدكتور زهير. حتى أخوانه في البيت رفضوه بُعَيدَ أيام من وصوله خالي الجيوب، إلا من شهادات ورقية لا تنفعهم، ولا تغني من لا يملك مفاتيح التسلق!

تناقلت رياح المدينة اقتراحاتها عليه:

– لو ترك له أخوانه ما ورث لرشا به، ووصل!

– لو جاء بزوجة أوروبية زرقاء العينين فاتنة الجسد.

– لو امتلك دهاء أخيه.

– مئة ألف في مكتب المدير العام تفتح له أكبر مكتب في الدائرة!

– لو، لو.

على مقاعد المقهى تربعت أفكار الرواد تساعد زهير.

عاد ليحدق في شموخ هذا البناء الذي كان قيد التأسيس يوم سافر، وكان يحلم بغرفة أنيقة في أحد أدواره العالية، وقد كتب على بابها "مدير التخطيط."

"تخطيط؟"

راودته الكلمة الحلم، فقفل راجعاً إلى مبنى الوزارة وقد نبتت في ذهنه فكرة "التخطيط".

*

شاب يرتدي بزة أنيقة وربطة عنق على شكل فلة سبق "أبا عبده" البواب إلى باب المرسيدس الفارهة وفتحه بانحناءة لم يفعلها أبو عبده مذ وهن جسده.

ترجل المدير العام بزهو وسأل:

–من أنت يا بني؟ هل أنت عبده؟

– أنا زهير يا سيدي، أساعد العم "أبو عبده"، أنا خادمكم الأمين!

– هل تقود سيارة يا زهير؟ هيا ضعها في الموقف؟

تراجع أبو عبده للخلف موقناً أنها آخر أيامه كبواب في الوزارة!

وتقدم من الشاب الغريب يستعطفه والشرر يتناهى من عينيه الموهنتين، وكأنه آخر رمق ينساب من عنفوان ولَّى وهوى أو بدأ حقيقة الانهيار أمام جاذبية هذا البواب الجديد.

– من أنت أيها الشاب، كيف تأتي وتسحب رزقي ومصدر معاش أبنائي!

– لا تخف يا عم، لا يستطيع أحد أكل رزق غيره، اطمئن.

– وماذا تفعل أنت الآن إذن آه؟ قل لي!

هول المفاجأة ضعضع أعصاب أبي عبده المصاب بالروماتيزم المزمن، والذي يعمل بواباً للوزارة منذ عشرين عاماً، وقد كسب عطف المدير العام والوزير نفسه عدة مرات ونال بعض صدقاتهم العينية مقابل خدماته في بيوتهم أو مزارعهم!

هدأ زهير أيضاً، وجلس قرب أبي عبده على كرسي متهالك، وقال له:

– انظر يا عم، لا أريد قطع رزقك، لكنني بحاجة لوظيفة في هذا المكان، بحاجة لعمل، فهل تساعدني؟

يحلم الغريق بقشة! يصطنعها من زبد البحر، يصنع الوهنُ من قبة الموجة قصراً، يستقبل فيه الحوريات، يدللهن، ويسبغ عليهن اللباس والذهب والفضة! أليس هو الأمير الشاب؟

تختلط في عيني البواب الشيخ صور الشباب والمجون، بدمع الأبناء الجياع. تصبح الأيام القادمة مرآة مشوهة لماض كان الحلم فيه مشروعاً، فالسماء التي لم تمطر يوماً ذهباً ولا فضة كانت تعده بحبات مطر على مزارع القمح، تخفض سعر الخبز، وتجعل الرز وجبة أسبوعية مميزة بفخذ دجاجة كبير، وربما بدجاجة كاملة!

كانت الصواعق الحارقة بوادر أمل بقطاف بعض الفطر في حديقة الوزارة، في الغد يصنع وجبة غداء مجانية إذا لم يتنبه عليه سائق الوزير المخادع!

ويأتي الشاب اليافع ليسرق كل الأحلام قبل أن ينجز واحداً منها، قبل أن يفيق من حلم الحوريات والمن والسلوى!

– لا تحلم يا عزيزي، واعلم أن خطتك فاشلة، والآن ارحل، هيا، ارحل.

نهض زهير وابتعد والدموع تملأ عينيه الساهمتين. تعثَّر وسقط على الأرض، قام وتابع طريقه في شوارع كان يحلم ذات يوم بتقبيل زواياها فور حصوله على الوظيفة.

*

الوطن هناك!

هل صحيح ما يقال إن موطن الرزق هو الوطن الحقيقي؟ هل حب جاسمينا ودفء أنفاسها هو الوطن؟ أم شركة أبيها التي أشرعت أبوابها أمامه!

أحبه صاحب الشركة والمدراء التنفيذيون فيها، ولم يغَرْ أيٌّ منهم من طموح قد يتملكه، فقد يمتلك قرار الشركة كما امتلك قلبي مؤسسها وابنته من قبل؟

هل الوطن هناك حيث ابتسامات الجيران وأبواب شققهم المفتوحة بالتتابع ليلقي عليه سكانها تحية الصباح أو المساء؟

قال أخوه ذات يوم:

– ساعدناك بمالنا بعد نفاذ حصتك المقدرة من ميراث أبيك، وحصلت على شهادات لم نحلم بها، وتعود لتنهب أقوات أبنائنا؟

قالت كاذبةً أختُه التي تقاسمت حِصَّته أيضاً:

– بعت أغلى أسوارة ذهب لدي ذات يوم، لكي يرسل أبوك ثمنها لك كي تحصل على دراستك العليا.

يعرف أن والده ترك ثروة طائلة وأن حصته من الميراث باقية في حصص أخوته، وأن الوالد المتوفى قد وزع الحصص عادلة، وأن أحداً من أخوته لم يدفع فلساً له من

ماله الخاص. لكن الوطن خنجر في الحلق. ودموع جاسمينا في المطار شوكة في الذاكرة.

اصطدم بعمود إنارة، فضحك عليه أطفال الابتدائية العائدين إلى منازلهم:

– لو كان الوقت ليلاً لأضاء العمود طريق الرجل!

– ربما تحرك العمود فجأة وغشه فوقف في طريقه!

– بل نسي نظاراته في البيت!

– منْ؟ الرجل أم العمود؟

حتى أطفال الوطن يسخرون! لا بأس فعمود النور هو الآخر يقف في طريقه!

قال الأب:

– استثمر أرض أخيك حتى يرد لك قسط دراسته الأخير لا أملك الآن المال الكافي له.

استثمِرَت الأرض، وأعطت كما لم تعط من قبل. الأرض تحب أيضاً، وهل هناك أسمى من حب الأرض، وهل هناك أكرم من عطائها!

ازدادت ثروة الأخ المستثمر فاشترى متجراً في المدينة، ثم قطعة أرض مجاورة، وضم القطعتين ليؤسس أكبر مشروع زراعي في المنطقة، وحين همس له الأب على فراش الموت:

– الأرض لأخيك يا بني، لا تنس اتفاقنا، لقد ردت عليك أضعاف المبلغ الذي أقرضته لأخيك.

– لكنك قلت أن أستثمرها حتى يعيد هو بنفسه لي ما أقرضته إياه من مال!

– صحيح ولكنك فعلاً حصلت على أكثر من مالك!
الحمى وارتفاع ضغط الدم ووهن الشيخوخة ودهاء الأبناء ختم معاناة الشيخ الهرم بدفنه عاجلاً، فالحياة تبدأ بعد رحيل كابوس الأبوة!

– أخي أيها الحبيب، أعد لي أرضي. سأعمل بها فلاحاً ولا أريد الوظيفة أو المناصب!
ضحك الأخ الكبير وقلب على قفاه، بينما تقدمت أثداء زوجته الضخمة إلى الأمام، وشخرت بصوت جرحه النيكوتين وسد بعض طريقه قطران السجائر المحلية التي تدخنها:
– اسمع يا ولد، ليس لدينا شيء لك، حرمنا أنفسنا اللقمة من أجل دراستك، وأرضك التي تدعي ملكيتها نزفنا الدم في إصلاحها وغرس أشجارها، والآن بعد أن بلغت وبدأت تثمر تأتي حضرتك بالدكتوراه كي تحرثها و تعيد ديونك؟
هيا، ارحل، وعد إلى أوروبة، هناك احرث وازرع.

لم يحرك الزوج لسانه ليسكت امرأته، ويطيب خاطر أخيه، بل تململ وهو يرى الدكتور زهير يخرج منهاراً كشجيرة غضة تتناوب على هزها قبضات الرجال.

*

–شاي أستاذ؟

– هات شاي، هات قهوة، وإذا كان لديك سم هارٍ هات أيضاً.

– لاه، لاه، يا أستاذ! في الصباح كنت تنشر الحبور فينا! ماذا حدث، من غير شر!

– حتى "بوَّاب" لا يقبلوني في هذا البلد، ماذا أفعل، بربك انصحني!

– إذا كنت تقصد ثمن الشاي في المقهى، فلا تشغل بالك، على حسابي كل الشباب الطيبين، (ولوّ) دكتور! لو انتهى الناس الطيبون من الدنيا لخربت، توكل على الله يا رجل، ستفرج لا محالة، البلد بحاجة إليك يا أخي، انتظر وسوف تراهم يركضون خلفك!

ضحك زهير، ضحك ساخراً، من كلام عامل المقهى أم من نفسه، لم يستطع تحديد سبب الضحك، لكن نوبة ضحك جنوني اكتسحته، فسر العامل وهتف منتشياً وهو يطلب الشاي بصوت عال:

–هه! هكذا تكون الأمور، اضحك عليها تنجلي! واحد شاي سكر قليل للدكتورررر.

لم يدب اليأس فيه، واجب الأرض والعرض والشرف، واجب رد الدين لطين درب المدرسة، لشقاء السنين، لأمل الأب الذي لم ير الشهادة العليا لابنه على جدار البيت، لجاسمينا التي تركها طمعاً بحب أكبر في الوطن، حب الوفاء!

*

سمع استغفار أبي عبده الغاضب عندما فوجئ به أمامه:

– استغفر الله العظيم، يا فتاح يا عظيم! ماذا تفعل هنا ثانية يا بني! فتش عن رزقك في مكان آخر، هيا ارحل قبل أن يأتي الوزير، إنه يشك بكل الناس، مرافقوه سيهينونك، يبدو عليك أنك ابن ناس، ارحل أرجوك!

تجمع فجأة عدد من الشبان الأقوياء أمام البوابة، دون أن يعره أحد اهتمامه، وما هي إلا لحظات حتى وصل موكب الوزير، فانتشر هؤلاء في زوايا المكان، وعيونهم ترصد كل حركة حتى لو أتت من غصن إحدى أشجار السور الأخضر!

فتحت أبواب سيارات الصالون وتقدم فرسانها من سيارة فخمة كانت قبيل ثوان تتوسط الموكب وصارت وحيدة أمام بوابة جانبية للبناء. لم يلحظها زهير من قبل، ولا تقل فخامة عن البوابة الرئيسية للوزارة رغم هدوء مكانها.

تلاقت نظرات زهير والوزير لثوان، تبادلا خلالها دور صرصار قميء وقط انتهى للتو من التهام وجبة دسمة!

قال زهير لنفسه:

- لن أكون صرصاراً أبداً، ولن تكون هراً أيها الوزير!

أجابت نظرات الوزير المتعالية:

– رأس كبير لصرصار صغير! كم أخشى الصراصير!

ضحك زهير وقال:

– أنا بوابك يا سيادة الوزير، لا تخف!

لبط الوزير رخام المدخل ليزيل غباراً لم يصل حذاءه بعد، ودلف قلعته الحصينة، بينما دار زهير حول نفسه، بصق بقوة على خنفساء صغيرة ظهرت للتو وركلها بعيداً. وغادر حزيناً على الخنفساء المسكينة.

المسرب الثالث

العدوان والحرب الأهلية

تمضي الأيام سريعة كريح كانون الشرقية! يتغير الزمان والمكان، وتبقى الآه.
أحجار البازلت المتناثرة شواهد تاريخ جبل عامل كانت تراقب كتل الحديد الضخمة تزحف نحو الشمال، تخترق بساتين التفاح وكروم العنب والتين فتضوع تحت سلاسلها تعانق تراباً علت فوقه بضع سنين فقط.
الزيتون المقدس في الوديان والمنحدرات، شاهد آخر شُوِّهَتْ نظراته فسالت دموعاً اختلطت بدماء الوطنيين المدافعة عن بقايا الأرز المتناثرة هنا وهناك، وهي تروي متقطعة الأنفاس حكايات بطولات تتكرر عن صراع خير قديم بين أنكيدو وجلجاميش.
تنهي الدبابات حوارات الطبيعة الغناء، وتغطي سحب سوداء آليات معادية دمرتها وحدة سورية متمركزة في مكان ما غير بعيد. الزيتون أيضاً قدم شهداءه، بعد أن أبى أن يكون ستار حماية لقوى البغي الصهيونية.
ما أصعب أن تتقاتل أصابع اليد الواحدة!
وما أسهل أن تجرح بعضها إذا ما استخدمت نصال العدو الشريرة .بدأت بعض دكاكين الخياطة تصنع أعلام المستقبل، كان الأزرق يخط أطراف القماش الأبيض نهرين تمددت خلسة بينهما نجمة خماسية فنبت لها قرن سادس. هي ذات الأعلام ترتفع فوق هوائيات الدبابات المغيرة.
إنها معركة الرايات، تعددت ألوانها بتعدد أشكالها، صارت تتوزع أركان بعض البيوت، فتنازعت وتصارعت في ذات غرف النوم الهادئة .تصارع الصليب والهلال،

والسيف والمنجل، وشجرة الأرز صارت موديلات، وتصارعت النجوم على الرايات، رباعية وخماسية وسداسية! تمزقت ألوانها داخل بيوت حامليها، الأبيض والأخضر والأزرق والمخطط وذو البندقية.

حتى أرزة علم لبنان تغيرت أشكالاً فجاء الحطابون وقصوها بأشكال هندسية مختلفة، لفوها بالأحمر وصنعوا منها مثلثات ودوائر.

لبنان يا بلد الأرز، باسم الأرز نذبحك، باسم الحرية المطلقة نطلقك، باسم الدين نضعك فداء طائفيتنا وتحزبنا وعيشنا.

انسلَّ رجال المخيمات بعيداً. معركة فلسطين تجاوزت حدودها، كان لابد من اجتثاثهم في خيامهم البائسة كي يرفرف العلم الأبيض ذو النهرين في كل مكان من "أرض الميعاد".

ضحك قائد العدوان شارون واهتز كرشه الضخم:

"سجل أيها التاريخ أني فاتح بيروت. أما أنتِ: "إسرائيل" الكبرى، فاشهدي أنّي صانع مجدك في الشمال. ستشربين منذ الآن من ينابيع الأرز الخالد الرقراقة. ستتدفق مياه الليطاني نحو الجنوب، إلى مدنك الممتدة نحو الشمال، ها هي حدودك تتمطى، مجدك نكتبه بدماء الأعداء العرب، مسيحيين ومسلمين، كما أقسمنا منذ الأزل. فلتشهد تاريخ يهوه أنني قائد الفتح الجديد.

صبرا أيها المخيم البائس الحقير، تركك الرجال، ليقنصوا من دباباتي ما أرادوا، وما علموا أن حريمهم، معامل الرجال لا تستطيع التنقل بعيداً، وعليَّ تقع مهمة تدميرها؛ نساؤهم مصانع مستقبلهم ستتوقف الليلة.

مصانع أخرى للحالمين ببيوت شردناهم منها قبل سنين، سندمرها أيضاً، مصانع شاتيلا.

ما أجملك أيها الأحمر الفلسطيني تغادر عروقك، تخضب أرض الأرز بنصال تغمد من قبل الأهل، باسم الأرز."

*

لم يكن فيما مضى للدموع مكان في عيني الشاب القوي زهير. ومثل عيني زهير آلاف العيون في الوطن الجريح.

الأرز يبكي، والزيتون يُجتثُّ، والتين يذوي، أما الدوالي فقد تقطعت، كما كروم السفوح النضرة في كل مكان، مرج عيون، حاصبيا، راشيا، بيروت، بيروت، بيروت . حتى حصى الشاطئ تئن وتبكي.

بيروت كنت الحلم والجمال، كنت الرؤى ونبض القلب وكل ما يبهج الروح وما يمكن أن يقال.

درة البهاء أنت، شريان صار شريانين، وتبقين رمز البقاء.

– ما اسمك؟

– جو...زوز..يييييف! جوزيف.

– مسيحي! انحروه.

نسي أن اسمه بيروت منذ الأزل، لكنها بيروت تأكل أبناءها.

– ما اسمك؟

– ع...م..م...رررر!

– مسلم! اصلبوه.

صار الدين فوهة بندقية وحد سيف، وصارت بيروت مقصلة الحبيبين.

– بيير! بالأمس كنا أصحاباً، ومعاً سبحنا في مياه الروشة.

–اقتلوه.

– "إسرائيل" هي العدو يا ناس. حاربوا عدو الجميع.

– بل "إسرائيل" شمس الزمان، جاءتنا بنورها.

– والدماء؟

– نذر الخلاص، صليب الرحمة!

*

– زهير! حبيبي! انتهت الحرب أو كادت، ها هم يجتمعون في الطائف السعودية، كأن شيئاً لم يكن!

- كم أود لو نسفتهم جميعاً، أمراء الحرب. هؤلاء لهم الموت فقط، الموت يشفي غليلي فقط!

– حبيبي أيها الرومانسي العربي، أراك نسيت نشيج الأرز، لقد سئمت دموعك. سئمت حياتك. ارجع أيها السوري وعش في بلدتك بعيداً عني وعن ذكرياتك الحمقاء!

– جاسمينا، يا ابنة الألوية الحمراء، أراك تنكصين!

*

الخدمة العسكرية الإلزامية دفعت بالملازم زهير لقيادة سرية دبابات لتشارك في صد الهجوم الإسرائيلي على طريق ظهر البيدر الشريان الأكبر بين بيروت ودمشق، وكانت وحدته تنتقل من مكان إلى آخر حسب أوامر القيادة.

هناك قضى بعضُ أعز أصدقائه، أصدقاء الدم والوفاء، أصدقاء الصمود والتصدي في حراج ومنحدرات جبال لبنان العريقة. استشهد مروان، واستشهد ميشيل، ذبح حسين بحربة قبل وصول رصاصة معادية إليه!

حتى جاسمينا حملت أمميتها معها تاركة ملايين والدها للدفاع عن مبادئ نذرت نفسها فداءها.

هناك التقت بزهير مصادفة في بيت المقاومة، بعد انقطاع تواصل استمر عدة سنوات، كان خلالها قد تزوج وأنجب، وكانت رسائلها تموت في منتصف الطريق بينهما حيث غيرة الزوجة وأسباب أخيه الحريص!

لم يصدق عيناه عندما فوجئ بها مع صديقهما الفلسطيني في "بيت المقاومة" غرفة عمليات بعض المنظمات الوطنية اليسارية، ظن لثوان أنها كانت تخونه

مع صديقه الذي استوطن الغربة، بعد احتلال صيدا، لكن لطمة سريعة منها، وارتماءة أسرع على صدره أيقظاه من شروده.

– أنت أيها الخائن، ماذا تفعل هنا؟ من يخون حبه يخون كل شيء!

*

كان الهدوء يلف المكان، فقد توقف القصف الصهيوني قبيل عصر يوم الجمعة، ولا يفضل اليهود الحرب يوم السبت، لذلك كان بيت المقاومة يغص بالفلسطينيين وبعض القوميين واليساريين والمتطوعين العرب والأجانب الذين جاؤوا لنصرة معتقداتهم. والهدف هو الاستعداد لبدء هجوم على أحد المواقع الإسرائيلية.

لما كانت وحدة زهير قد تمركزت في هذه البقعة فقد صادفت جاسمينها حبيبها السابق زهير، القادم للتنسيق والتوقيت والتعاون التكتيكي.

كان وليد الفلسطيني صديق زهير في الغربة وزميل الدراسة قد سهل لجاسمينا الوصول من دمشق إلى بيروت براً، بعد أن فشلت جميع محاولات اتصالها بزهير.

في غرفة جانبية كان حبيبا الأمس يفكان خيوطاً تشابكت وتعقدت، وكادت أن تملح حلو ذكرياتهما وشقاوتهما الجامعية.

غابت سماء عينيها خلف دمعتين. الشعر الذهبي الملتف والمتطاير، ابتسامة طفلة، ورائحة الزمن الحبيب .ذكريات تداعت للحظة.

- كبرت يا زهير! أراك وكأن العمر أسرع بك إلى الشيخوخة، لحيتك شبه بيضاء، وفي صوتك أنين! هل هي جميلة!
- من؟
- زوجتك!
- لست أدري!

ضحكت جاسمينا، انتبه زهير لنفسه واكتشف جوابه فضحك أيضاً. عانقته بقوة، شدها إلى صدره، أحست عظامها تتحطم، بكت من الألم وبكى من الشوق.

دفعها عنه بكره وغضب وراح يضرب رأسه بالجدار ويصرخ:

– مجرم، مجرم، مجرم!

ارتعبت جاسمينا وكادت تخرج طلباً لمساعدة وليد، لكنها تراجعت عن الباب وقد تذكرت هستيريا مشابهة كان يقع فيها عندما كان يتذكر حوادث في الوطن جرت له! قالت لنفسها:

"ما زال يعاني قسوة الوطن وهو فيه."

أسرعت ووضعت رأسه على صدرها بحنان، وهي تمسد على شعره الأغبر المتسخ.

–عجيب أمر الشرقيين!

زهير شعلة من العواطف المتأججة، عندما كان يتحدث عن استيلاء اليهود الصهاينة على فلسطين قطعة بعد قطعة، وكأنها كعكة ميلاد، كان يثور وكان

الدم يندفع في عروقه والعرق يتصبب من جبينه، وأصابع يديه تتقلص بقوة في قبضة لم يكن أحد من رفقائه يستطيع فتحها في منافسات الفتوة تلك الأيام. كان صوته يعلو ويعلو حتى يصبح قالعاً كالبارود، وهو يرجو الله أن تشتعل الحرب ويكون في جبهة القتال. يقاتل ويقاتل، لا يهم الموت بل المهم إشعال فتيل يدمر رتل دبابات دفعة واحدة. كطفل مُهجَّر كان يحكي قصة انتصار وانتقام.

ها هو الآن في ذات الميدان، مع بعض رفاق الدراسة الذين سمعوا محاضراته وتوعده سابقاً. لكنه يبكي كطفل فقد أمه!

إنه اللحظة زهير الذي بكى يوماً زواج أبيه وحرمانه أمه من نفقات الحياة، يبكي جوعهما وفقرهما والخير العميم تحت ذات السقف، لكن في الغرف الأخرى حيث يعيش الأخ الأكبر مع زوجته وولديه.

اللحم والرز طعام الابن والكنة، والقهوة البرازيلية والفواكه بعد الطعام ملذاته، بينما الخبز البائت وقليل من الزيت والزيتون طعام الأم وابنها.

إنه زهير الطفل الآن، وربما كان بالأمس زهير الفدائي، فقد حكى وليد قصص بطولاته لجاسمينا، كان خلال استراحاته التي لا تتجاوز ساعات قليلة يتسلل من سريته لينفذ عملياته الفدائية الشخصية فيدمر دبابة أو يفجر دورية معادية، قبل أن يعود إلى وحدته العسكرية النظامية، وكأن شيئاً لم يحدث!

- أنا خائن يا جاسمينا!

نظرت جاسمينا بعجب وبلاهة، وهي تسمع اعتراف زهير الخطير. هل يخون هذا الحمل الوديع وطنه! هل يخون الثائر قضيته، لم يكن يوماً سوى مشروع قائد حكيم، يعج بالحيوية والنشاط والتفاني، باستعداد دائم لتقديم روحه في سبيل وطنه السليب كما كان يقول، هو السوري الذي يدعي أن فلسطين أرضه وأرض آبائه وأجداده، الأمر الذي لم تكن تفهمه جاسمينا في البداية.

– كيف لا تفهمينني وتدعين أنك أممية، عمال العالم أخوة، لا فرق بين عامل أبيض وآخر أسود، الراية الحمراء تجمعهم، وليس اللغة والتاريخ والدم! نحن عرب يا جاسمينا، أبناء جد واحد وجدة واحدة، كان العلم العربي الواحد يرفرف على دور العرب من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي شرقاً، بل من حدود الصين والهند إلى حدود فرنسا ذات زمن!، نتكلم لغة واحدة، وندين بحب وطن واحد، الاستعمار الأوروبي فرقنا وتقاسمنا كما يتقاسم المحتفلون كعك العيد. وتقولين أنت سوري وهذا فلسطيني! تعلمي الجغرافيا والتاريخ يا ابنة الأممية!

– خائن!

– نعم، هل تتخيلين ذلك؟

– طبعاً لا، ولكن قل لي، هل شربت شيئاً قبل دخولك! أذكر أن زجاجة بيرة واحدة كانت تجعلك أضحوكة!

رفع رأسه المصدع عن صدرها الطري، وقال:

– بأي حق ألقي رأسي المذنب هذا على صدرك!

– أنت حبيبي!

– شهق بغصة كادت تخنقه فسارعت لكوب ماء قريب.

مسك يديها والكوب ما يزال في كفيهما، قبل رؤوس أناملها، مدت وجهها نحوه تريد تقبيله، اقترب من شفتيها وتوقفت الشفاه على بعد سماع الأنفاس.

– ألم أقل لك بأنني خائن حقير، حقير، حقير! مجرم كريه، كريه، كريه.

– هون عليك يا صاحبي، وقل ما تشاء، أنت زهير الذي خلتني فقدته، ونسيني!

– اسمعي سننفذ اليوم عملية رائعة!

– وهل ستأخذني معك!

تحول القط الأليف فجأة إلى قط بري، تربع أمامها على السرير الحديدي الضيق وبدأ يشرح خطته كطفل صغير حفظ نشيده للتو.

– والخيانة! نسيت أنك خائن! قل لي أولاً عن الخيانة هل ستخونني أم تخون رفاقك أم جيشك أم ماذا؟

تذكر زهير أمراً ما، فهدأ ثم اقترب من جاسمينا بجسده وكأنه سيغطيها وهي ما تزال قابعة وسط السرير.

– لقد خنتك يا جاسمينا فتزوجت، وها هو قلبي يعود إليك فيخون زوجتي!

– إذن تحبها!

عاد الطفل التائب إليه، شفتاه ممطوطتان، عيناه مسبلتان. الحزن والألم، الخوف القديم من المجهول، علاماتٌ في عينيه الغائرتين في غيوم مظلمة.

– أقول صادقاً، حاولت حبها، تماديت بتقديم قلبي لها، لكنها لم تصدقني، كانت تتهم قلبي بالضياع فيك! لم تكذب، لكنني كنت وفياً لها ولم أتصل بك رغم جراحاتي وعذاباتي من شكوكها اللامتناهية، حفاظاً على أسرتي، فنحن شرقيون يا جاسمينا، لا نستطيع الخروج من سور الأسرة، القلب لدينا ماكينة تضخ بترول الحياة، أما الحب، فهزل شباب، لا نعترف جهاراً به، وإلا ما وجدتِ بيتاً عامراً بأبناء وبنات بين أبوين رحيمين.

–وماذا كنت تفعل برسائلي، بالكتب ودواوين الشعر التي كنت أرسلها لك كل شهر!

– ماذا؟

– ماذا ماذا؟؟

انتصب زهير مبتعداً عنها، ونشب سبابته في أنفها:

– أنت كنت ترسلين لي رسائل وكتباً؟ متى وإلى أي عنوان؟

– وهل أعطيتني أكثر من عنوان؟

*

لم تكن علاقة جاسمينا بزهير علاقة حب متميزة فحسب، بل كانا صديقين

حميمين يحترم كل منهما الأبعاد الفكرية للآخر رغم اختلافهما في كثير منها، لكن الفكر المستنير لهما جعل صداقتهما تتخطى حدود ما يظنه أصدقاؤهما، إلى اتجاه آخر ابتعد عن توقعات الجميع.

رغم اختلاف ثقافتيهما ومجتمعيهما والطبقة الاجتماعية لكل منهما فقد كانا شفافين في عواطفهما ومشاعرهما، ساعدته جاسمينا في البداية على تخطي حاجز اللغة الأدبية التي لم يكن يدرسها في الجامعة، الاقتصاد والتجارة وقوانين السوق والتخطيط الإداري كانت مواد دراسته الرئيسية، أما الشعر والأدب فكانت جاسمينا المعلم الصديق الذي ساهم بتنمية ملكة الشعر بلغة ليست لغة الأم أو الأب.

مشاعر الحرمان الذي عاناه زهير في الغربة والوطن على حد سواء وجد دواءها في دفء جاسمينا عاشقة الشرق والحب العذري الذي وجدته ضالة مجنونة يجب أن تبلغها، ولم يكن باستطاعتها تحقيقها في غرب مادي كرهت فيه المال وعلاقات الرياء المرافقة له.

وهكذا وجد الضالان نبع الحب، شربا منه حتى الثمالة!

أصابعهما لمتشابكة والمتأرجحة فيما بينهما كانت تعقد اتفاقاً روحياً لم توقعه الأيدي يوماً، كانت القصائد الغزلية مشتركة، وحين يبتعدان يتخاطران بمقاطع شعرية لا تلبث أن تجد نفسها عند اللقاء كمصراعين لنافذة روح واحدة.

قال له وليد ذات يوم:

– نراكما يناسب أحدكما الآخر، لم لا تتزوجان!

– الزواج عقد دائم، يا صاحبي!

– وهل قلت غير ذلك؟

كشف زهير جميع أوراقه، الزواج عقد دائم وليس مؤقتاً، ولا يكون دائماً إلا لأبناء الوطن الواحد!

قال وليد:

– أليس الحب وطناً، وهل يوجد أكبر من هذا الوطن!

صمت زهير.

الحب! ومن يعرف الحب أكثر من زهير! وجد الحب هنا، تعرف على الحب هنا، هنا خفق قلبه بعد خيانة حب المراهقة الذي فطر قلبه وكاد ينزع منه كل حب، لكن الغربة والبعد عن الأم وتراب الوطن أعادا قسوة الوطن عشقاً للوطن والأرض المسلوبة من ذويها والمتحدة معه في ذات السلب، هو مسلوب من أمه، من عطف أهله، من هواء الوطن العليل، هذا الهواء الذي حاولت جاسمينا تعويضه برومانسية طالما حلم بها فكانت حقيقة تنبعث من ثنايا عاشقة الشرق، من خلايا جسدها المسمر بأشعة شمس قادمة من شرقه البعيد، من فوق صحرائه ذات البعير والخيام والنفط والبداوة!

وجد الحب عند جاسمينا، وجده في الرعاية التي حظي بها في الجامعة التي كانت تغدق عليه الهدايا المعنوية والمادية، كانت مجلة الجامعة تنشر قصائده دون حاجة لتصحيح فكان مدرسو اللغة يفاجؤون بمستواه اللغوي، حتى أن السؤال الممل كان يتردد دوماً على مسامعه بإلحاح شديد:

– لماذا تدرس التخطيط الاقتصادي ولا تدرس الأدب، بل لماذا لا تتفرغ للشعر يا شاعر الجامعة!

– بلادي بحاجة لاقتصاد قوي، وليس لشعراء، الشعراء كثر في بلادي، والفقر كساء الشعراء، الشعر لا يشتري قوت اليوم.

عندما قرر زهير الزواج رحلت جاسمينا بعيداً عنه وأقسمت ألا تحادثه أبداً، أقسمت كطفل خانه صديقه الحبيب، وبرت بقسمها كمحارب قديم عرف أسرار الحرب، غضبت وبكت، وكادت تنتحر لولا قناعة ابتكرها لها ذات يوم، واقتنعت بها، بأن الصمود في وجه المحن أقوى من الانتحار.

لم يستطع زهير يوماً العودة إلى الحب الرومانسي الذي عاشه مع جاسمينا! هذا الحب كان قصيدة عصماء لم يدخل زهير سكرتها إلا يوم بدأت زوجته الهجوم على ذكرياته.

فراق الصديقين لم يمح صورة جاسمينا من ذاكرته، أو من خيال زوجته الافتراضي.

عندما تغط جاسمينا في عالم النسيان كانت الزوجة توقظها:

– أنت لا تحبني!

– ومن قال ذلك؟

– أنت مشغول عني دائماً باجتماعاتك وأعمالك، حتى الكتب التي تضيع بين صفحاتها بت أكرهها، أود لو يأتي حريق يلتهم المكتبة كلها.

– في المكتبة أبنائي، وبنات أفكاري!

– كل قصائدك لنساء عرفتهن قبلي!

– وقصائدي لك، حبي الذي...

– لم تكن من قلبك! كل شيء لها، لها.

– من هي؟

– لست أدري؟ هناك واحدة غيري في قلبك!

*

المرأة كيان واحد لا يتغير بتغير المكان أو الزمان، شرقية أم غربية، شمالية أو جنوبية، شقراء، سمراء، زنجية، أم صفراء، كل النساء سواء.

تقترب جاسمينا بوجهها الرطب من خد زهير، تهمس بأذنه والأنوثة تعبق بالجندي المحارب فتغطي كل قوانين الجيش واحتياطات الحرب:

– زهير! حدثني عن زوجتك!

هل هي الغيرة أم شعور النصر أم اقتناص الفرصة؟ هل تحب جاسمينا حقاً معرفة خاطفة حبيبها لتسعد بمواصفاتها أم لتسخر من جمالها، لِمَ تزدحم المشاعر في الغريم؟ لكشف الندِّ المنتصر باحتكار قلب الحبيب؟! أسرار النساء هي أبعد ما كان زهير يفكر به، خاصة في ميدان الحرب الذي نذر نفسه له، وهو فرصته الوحيدة لإثبات حبه للوطن الكبير الذي تشرب عشقه مذ دخل المدرسة الابتدائية وتعلم مبادئ حبه في منظمة الشبيبة التي عمل فيها قيادياً يبث حب الوطن في زملائه من طلاب الصفوف الدنيا، ولم يقف نضاله في الجامعة خارج الوطن يوماً،

ولم تمنعه هناك المؤامرات التي كان يحيكها ضده زملاؤه من الأحزاب المناوئة لسياسة بلده القومية.

-زهير، هيا، قل لي كيف تعرفت على زوجتك؟ في مكتبة ما كما حصل معي؟

قهقه زهير ضحكة لم تعهدها جاسمينا، كان بؤبؤا عينيه يدوران في محجريهما كما كاد رأسه يدور في زوايا الحجرة، كدجاجة أصيبت بالطاعون، دار الرأس حول محوره أو هكذا خالته جاسمينا!

كانت سُميَّة ابنة عمه والتي أصبحت زوجته طفلة مدللة عندما حدث طلاق والديها، وصارت ابنة زوج غير مرحب بها بين ليلة وضحاها، صادف ذلك وجود زهير في الوطن بإجازة صيفية بين عامين دراسيين، كان فارق السن كبيراً بينهما، سنة واحدة كانت تفصل زهير عن نيل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، وسنة واحدة أيضاً كانت تفصل سُميَّة عن نيل الشهادة الثانوية.

زوجة من الوطن، ابنة عم، ضمان من زواج بأجنبية قد تسبب الاستيطان في الغربة!

أحس زهير بأنه ينقذ الفتاة من زوجة أب غير رحيمة بها في سن عصيبة من عمرها، وأنه ينقذ نفسه أيضاً من هجرة دائمة لبلد أعطاه العلم والخير، ويجذبه للعيش فيه بقوة الحب والمال والجمال. إغراءات غرق فيها كثيرون، لكن شيئاً في قلبه صدَّ إبهار الحضارة والرقي واختراق الزمن!

فضل العودة إلى الفقر حيث خبز التنور، وزيت الزيتون وكأس شاي الأم المعتق تحت (الميزر).

حصلت سُميَّة على الثانوية والتحقت بالجامعة وهي زوجة وأم، تعلمت الحياة في مدرسة زهير، لكنها لم تنجح في الوفاء له، كان زهير الهرم الأكبر عند الزواج، وصار بتواضعه أمامها الفأر المستكين الطالب صك البراءة ليل نهار، البراءة من خيانة ربما حدثت قبل الزواج.

–هل تريدني أن أصدق عفتك في أوروبة! غُشَّ غيري.

*

في الصمت ضجيج الكون، في الصمت موسيقى الحياة، فيه كل الحنين، وبه تتوفر لأعظم براكين القهر فرصة الغليان والتفجر الفريد. نسمات عبرت ياسمينة حضنت شباك الغرفة، وتسللت إلى رئتين كانتا قبيل قليل بحجم ثمرة جوز صغيرة، وصارتا بها ملء الفضاء.

غزا الصمت حديقة البحر الهادئة، فالليل قد انتصف والمتنزهون عادوا إلى سجونهم، ولم يبق في حديقة الحرية سوى شاب وفتاة. قمر السماء ونجومها كانوا يراقبون أفكاراً تجول بأشعار!

الحوار في هدأة الروح يتجاوز كل الكلمات. تتحول النجوم إلى قبل، وحفيف الأغصان إلى لحن الخلود. موج البحر يخفق قلباً أكبر، أوسع، فيه من ملوحة الزمان وما لم يستطعمه الشابان بعد.

تذوقا حلاوة لحظة، وشَّاها بريق الجمال، غدٌ قادم والليل عات ظالم ولكن ما يزال في البعيد.

ما أجمل الجهل بالمستقبل!

تنادت نجمتان وهما تراقبان مشهد مستقبل ليس بعيداً.

صدران يخفقان وشفاه تتغذى بروح الواقع الجميل. وفي الغد جبين وعبوس، في الغد ليل مدلهم بالبكاء والنحيب.

*

دمعتان انحدرتا كبيرتين، وأجهش زهير بالبكاء كطفل شريد.

– ما بك؟ عدنا للبكاء!

– تذكرت سهرتنا في حديقة البحر.

ضحكت جاسمينا، ضحكت على أول شغف لزهير. أول قبلة بادرته بها ولم يبتعد أو يجفل.

كانت ليلة المؤامرة، قررت أن تغازل الشرقي فأغرقته بشعر الحب، وفي لحظة خيال راح فيها العقل برحلة هيام، اقتربت شفاه أربعة وعقدت رباط حب من نوع جديد.

صممت جاسمينا منذ تلك اللحظة أن هذا الحب يجب أن يدوم، ولا يمكن لأية قوة أن تحطمه.

لم تبح بحبها العارم، كانت القُبلةُ من فَعَلَ. لكنه لم يفهم، بلادةٌ كَسَتْهُ من الرأس حتى القدمين، متعة مؤقتة، ورغبة أوروبية، وشبق لا يكتمل بل سرعان ما يزول! هنا العقدة التي لم يفهمها أيهما! فلم يحاولا حلها.

تحوُّل الرومانسية من كلام إلى فعل جسدي محدود بالقبلة وضم الصدر للصدر كان الحنان والوطن الذي افتقده زهير منذ عمر!

هذا لن يغير في المبدأ شيئاً، لن تصل الأمور حدود الجنس، فالجنس زواج شرعي لا يقدر عليه، صحيح أن أملاكه في الوطن كبيرة، لكن شره أخيه وتسامح أبيه، وغربته وحاجته للمال الآتي من الوطن أبواب مغلقة أمام زوجة غريبة وغربية في آن معاَ.

لم تكن أموال جاسمينا تهمه أو يفكر بها، حتى إصرارها مشاركته بدفع فواتير العصائر والساندويتشات كان يبوء بالفشل.

"في بلادنا الرجل يدفع".

كان يعرف وقتذاك أن الرجل من يدفع فواتير إفطار أو غداء أو عشاء، وربما شراب! لكنه فهم الآن وبعد الزواج أن الرجل يدفع كل الفواتير معاً، وليست المرأة سوى الجابي الذي لا يرحم!

يوم تزوج مخلصاً لزوجته قلبَه، بدأت الجباية:

- أنت لا تحبني، جسدك معي وقلبك معها!

- من؟

- إنهن لا شك كثر؟

-.....

- وهل يبقى الرجل سنوات في أوروبا دون امرأة، لست ملاكاً ولا يمكن أن تكون.

كانت الزوجة من تفتح أبواب الذكرى ولا تقفلها. يا لها من جباية، ويا لها من ضرائب.

كانت تراقب كل الحركات والسكنات وجميع أحرف كلمات المجاملة التي تصدر عنه أمام صديقة أو جارة أو عابرة طريق.

ضرائب الزواج ليل مبهم، لا قمر فيه أو نجوم. لا غيم فيه ولا مطر.

قال زهير:

– لم تصدق زوجتي يوماً أننا لم نقم علاقة جنس؟

– المجنون فقط يصدق!

– أنت تمتدحينها إذن!

– بل أؤكد أننا كنا مجنونين من الدرجة الأولى!

– هل تصدقين أن الجنس كان أبعد ما كنت أفكر به معك!

– لو طلبته يوماً لما استمرت صداقتنا، ولما وقعت فعلاً في حبك!

– ولكن!

– كانت تلك غلطتنا الكبرى! لولا عقلك المتحجر وخيانتك لكنا أسعد زوجين!

– وتقولين خيانة!

– المرأة إذا أحبت يا عزيزي شعلة متوقدة من العواطف، تطفئها نظرة حب من قبل امرأة أخرى، وأنت تزوجت على حبي! كنت أظن أنك ملاكي الذي لا يموت لكنك بزواجك صرت هلاكي الذي لا يموت.

– ستذهبين معي الآن لتنفيذ العملية.

– خلتك ستمنعني إن طلبت المشاركة!

– لِمَ أمنعك؟

– لأنني ظننت أنك ما زلت تحبني و تخشى أن يمسني سوء!

– لأنني أحبك أريدك معي، متعة الانتصار لا تفوقها متعة.

– هل أنت واثق من كلامك؟

قالت ذلك وغمزت بعينيها، فهم قصدها بسرعة فتابع:

– ... حتى متعة الجنس.

هنا وقفت جاسمينا منتصبة بالبزة الحاكي المموهة، كثيرة الجيوب كجندي متمرس، نزعت المسدس وحزام الوسط المثقل بالذخيرة ووسائل الدفاع الشخصي الميداني وارتمت عليه بكل جسدها كعاصفة هوجاء، رضخ لها، إذ لم يتوقع هذا الهجوم المفاجئ.

– الآن عرفت فقط كم تحبني!

اهتز السرير المعدني تحتهما، وتحرك قليلاً على الأرض الإسمنتية، فأصدر صوتاً لم يسمعاه جيداً فللقبلة عالم آخر لا يسمع إلا الصمت.

تحت السرير لمح زهير حقيبة سفر عرف للتو أنها لجاسمينا، نهض وسحبها خارجاً ثم فتحها، أوروبا تخرج منها لتعود إليه، سراويل نومها الطويلة البنفسجية نفسها. بسيطة خفيفة وهادئة الألوان.

–أعرف أنك لا تسمح لنفسك العبث بأشياء الآخرين.

قالت جاسمينا ذلك وشعور غريب بالإثارة بدأ كالسَّكَرِ يتغلغل في أوصالها وتخضع له مستسلمة لنشوة حرمت نفسها منها لسنوات، قشعريرة لم تتحسسها منذ أمد بعيد.

لم يجب زهير بل بدأ يفك أزرار سترتها وينزع ملابسها بهدوء، أمام ثورة الأنوثة والحرارة التي بدأت تتأجج في كيانها.

–الباب غير موصد! ما بك! هل ثورة الجنس اجتاحتك فجأة؟

تابع زهير خلع ملابسها دون مقاومة، جاسمينا المتمنعة صارت لعبة بين يدين طالما ندمت على عبث كهذا لم ترتكبه من قبل.

حاولت الانسحاب نحو الباب لتوصده، لكنه ضمها إلى صدره بقوة فتراجعت إليه وتابع مهمته حتى صارت شبه عارية!

شاهدها بثياب البحر مرة واحدة فقط على بلاج حديقة البحر، فوجئ كل منهما بالآخر يومذاك، فقد كانا كل مع رفاقه، وكان اللقاء دون ميعاد سابق. يومذاك أشاح بنظره خوف خلل عذرية صداقة اتفقا ضمنياً عليها. لكنه لم يتراجع أمام شجاعة اكتسبها مع الأيام، شجاعة الصمود أمام المغريات التي امتحن نفسه بها كثيراً عندما كان طفلاً أمام مشاهد الإغراء السينمائية.

– ليس الوقت مناسباً يا زهير. الرفاق ينتظروننا في صالة الاجتماعات.

الفتاة عارية، وحقيبة السفر مفتوحة أمامه، لتطل منها ثيابها الحريرية الناعمة، مد يده وسحب منامة مطوية بعناية، وشرع يلبسها إياها كأم تدلل ابنتها الصغيرة.

صدمة لم تتوقعها! لم تكن مشاعر الحب تؤجج فيه تعريتها إذن! اختلطت فيها المشاعر، تمنت لو استطاعت ركل أنفه القريب من ركبتها لتسيل دمه على إسمنت الغرفة!

سحبت منامتها من يديه وأرجلها وصرخت:

– أعرف كيف ألبس ملابسي!

– دعيني هذه المرة فقط!

– لم تتغير أبداً، بدوي جلف، وبعير غليظ!

تقدم زهير ببطء نحو الباب، أمسك قبضته والتفت نحوها للخلف دون أن ينبس ببنت شفة!

– كم تمنيت لو قبَّلْتَ عُنُقي مرة، عذرية حمقاء عشناها، وأحمق كل عذري! ماذا جنينا من رومانسية بلهاء؟ قصائدنا يسخر منها رفاقي ورفيقاتي حتى الآن! والحبيب العذري جاء بجسد امرأة من بلاد البداوة ليمارس حيوانيته التي ادخرتها عذريتي! أليس هذا صحيحاً؟

أوصد الباب بالمفتاح، أطفأ النور، وعاد إليها يلاطفها وعادت تتمنع في سرير عسكري مفرد خصص لشخص واحد، تأبى قساوة قش فِراشِهِ وحفرته العميقة أن يغفو عليه طويلاً إلا من هده التعب والنعاس.

قبيل الفجر سمع ميشيل يصيح كالديك فعرف أن وقت العملية قد حان، أيقظ العذراء النائمة قربه بقبلات على العنق والصدر العاريين.

– أجمل حلم، وأهنأ ليلة نمتها حتى الآن، دعنا فالنهار لم يطلع بعد، اعذرني على وقاحة الأمس، لم أقصد ما قلته!

– إذن تسمحين لي بتلبيسك منامتك!

– ولكن!

– سأذهب في مهمة الآن، عاشقان يوقظان اليوم الجديد، هل تذهبين معي!

– قد تكون آخر ليلة لي إذن، قبلني، أريد أن تغمرني بكل العواطف المخزونة فيك منذ قرون! أحب همجية البدوي فيك، خشونة البعير التي وصمتك بها ولم تكن سوى حملي الحبيب.

– الشباب ينتظروننا.

– أمنية وحيدة في العمر، اقضها لي، أحبك، أحبك، أحبك حتى الموت، بضع دقائق فقط، وسأكون في قبري مطمئنة، أو قد تتوزع أشلائي بحب على أشواك لبنان! لا يهم.

غمرها بذراعيه وضمها بقوة ثم همس بأذنها وهو يلثمها:

– من قال أنك ستموتين، سنحيا يا حبيبتي، أعدك بذلك! سنعود لحبنا الذي لا يموت، وسيجمعنا في عش خالد إلى الأبد .

استسلمت ليديه تضعان عليها منامتها، ثم تأبطها وخرجا.

نسمات ربيع بحمدون تلسع خدها فيزداد حمرة، القمر في الطرف الآخر من السماء يعلن الرحيل، ونجمة الصبح توزع قبلات الصباح لعاشقين يتجهان نحو أبواب جهنم.

– أحس بالبرد الشديد، لو ارتديت الخاكي!

– لا يا عزيزتي، هكذا بثياب النوم لن يشك بنا أحد.

وأخذ يصفر لحن الحب وهو يقترب من معسكر صهيوني مؤقت، ويقبلها بين الحين والآخر.

– لم تقل لي أننا سنقترب هذا القدر من العدو.

– نحن الآن حبيبان فقط، انسِ كل شيء عدا الحب، سنفترش الأرض تحت شجرة الزيتون تلك، تكلمي بالطليانية أفضل!

سمع الحارس اللغط الإيطالي وأدريانو تشيلينتانو يغني على لسانيهما معاً.

–هيه، سيجارة من فضلكما!

– لدينا سجائر محلية فقط!

– لا يهم، السيجارة تشعرني بالدفء والأمان.

تقدم الحارس الصهيوني منهما، كانا بثياب النوم، ولا مكان للسلاح في ملابسهما، اطمأن وتقدم ليأخذ سيجارة من العاشقين.

– أراكما ما تزالان مستيقظين!

– بل استيقظنا الآن، سنسافر بعد قليل، نرجو أن يكون المطار مفتوحاً اليوم.

– إذا حالفكما الحظ.

كان عقرب الدقائق يقترب ليتم الساعة الخامسة عندما سمع انفجار في الطرف الآخر من المعسكر، فانبطح الجندي أرضاً وأمرهما بالانبطاح معه والاستعداد لأمر طارئ.

–انبطحي أرضاً حبيبتي واشبكي يديك فوق رأسك وأذنيك، لا تغلقي فمك بل عينيك فالانفجار قوي قد يتبعه آخر.

نفذت الفتاة أوامر زهير، أما هو فقد سحب مدية كان قد ثبتها على فخذه، وشق بها ظهر الحارس الصهيوني، وركض نحو شجرة الزيتون، رفعت جاسمينا رأسها حين سمعت أنين الجندي يخرج مع أنفاسه الأخيرة ووقع أقدام زهير المبتعدة، فتذكرت كلمة الخيانة التي رددها بالأمس، وقبل أن تتفوه بكلمة كان قد انتهى من انتزاع كيس طويل مخبأ هناك تحت شجرة الزيتون حيث مكان موعدهما، وضع مطلق صواريخه على كتفه وبدأ يطلق منه الصواريخ نحو الدبابات التي بدأ بعضها بالتحرك. وهو يومئ لجاسمينا بالبقاء في مكانها.

اشتعلت المنطقة كلها بالنيران، لم تدر جاسمينا ماذا تفعل، حاولت التغلغل في التراب بتحريك صدرها وجسدها يميناً ويساراً، وهي تراقب زهير وحيداً يطلق صواريخاً ويدمر الدبابات على بعد بضع عشرات أو مئات من الأمتار. في حين تستمر التفجيرات في الجهة الأخرى من المعسكر حيث رفاقه يناوشون العدو.

"بطل هذا الزهير، وما خلته يوماً قد يفعل هذا!"

استمرت المعركة بضع دقائق، أحست جاسمينا أنها أعوام أو قرون.

"جئت إلى هنا ممرضة وليس عسكرية، ما بك يا زهير أوقعتني في أسرك، وأشركتني في معركتك؟"

رفعت رأسها نحو زهير، كان يزحف بصعوبة نحوها، كانت قد أصابته شظية في فخذه.

– خذي الضمادة وأسلاك معدنية هنا، حاولي شدها حول فخذي بقوة، أرجو أن لا يكون الكسر كبيراً.

– لا تتحرك، مهمتي تبدأ الآن، اسكت، أو لأقل لك: لا تسكت، فجِّر صمتك الآن.

المسرب الرابع

منمنمات مُقرحة

– زهير، قل لي ما هو أجمل منظر لديك في الطبيعة؟

–رجل وامرأة، شيخ وزوجته العجوز، شاب وفتاة، كل زوجين يسيران بحب في حديقة أو شارع أو سوق!

*

هل هو حرمان زهير من هذا المشهد في أسرته؟! ربما ! الوطن كذلك تجزأ بعد نكبة ونكسة وسلام يقطع أنفاس الفقراء الحالمين، ويكبِّرُ كروش السلاطين.

– حرب تشرين جمعتكم!

– جمعتنا للمرة الأخيرة، ولبضعة أشهر فقط!

– وانتصرتم!

– كان نصرنا على أنفسنا، والاعتراف بخياناتنا التي أضحت بدورها النصر الأكبر.

– أنت متشائم دوماً؟

– نحن العجول السمان، نقدم بعضنا للسبع، نهز رؤوسنا طرباً عندما نسمعه يشتم أهل أخوتنا، ونحلم برضاه.

*

استقبل زهير بعد الحرب استقبال الأبطال، بكى عرفاناً للوطن، ولثم ترابه، استلم المكتب الذي حلم به كثيراً، وصار مديراً للتخطيط في المكان المناسب الذي انتظره طويلاً، فاعتلى جميع المنصات التي استقبلته يرفع راية الوفاء والحب والتضحية.

كان يسهر الليالي في مكتبه أو منزله يعمل لأجل النهوض بسوية الاقتصاد، قدم مشاريع التطوير وتحسين الأداء، حارب البيروقراطية فأحبه مرؤوسوه وناموا للمرة الأولى مطمئنين أن هناك من يقوم بحماية مصالحهم ويدافع عن حقوقهم أمام رؤساء عمل ومديرين يفهمون أن واجباتهم الإدارية لا يمكن أن تتجلى إلا بالرفض والتسويف والعقوبات.

قال لزوجته:

– الحمد لله، فرجت بعدما كنت قد ظننت أنها قد لا تفرج!

– وأنت خسرت رِجلك في الحرب!

– هناك من استشهد، هل خسارة ساق تساوي في زمن الشهادة شيئاً؟

– والسيارة التي وعدوك برقمها كمعاق حرب؟

– لا بأس، لدينا سيارة المصلحة تقوم بالواجب وأكثر.

– لكنها من حقك!

الزوجة الصالحة والبيت والسيارة ثالوث السعادة، حصل زهير على الزوجة التي تقاسمت معه مر الحياة وما أسماه حلوها، أما السيارة الحكومية فحساده عليها أكثر من الفرحين له بها.

يبقى البيتُ الهمَّ الأكبر، البيت هو الوطن الصغير، لا راتبه ومعه راتب الزوجة وكذا مكافآت العمل، تكفي لسد رمق العيش مع أطفال بعمر الزهور، ولا وقت لديه لعمل إضافي، والمصيبة تزداد مع التزاماته الاجتماعية التي تزداد يوماً بعد يوم.

– زهير يا صاحبي كن ليناً قليلاً!

– اللَّين يُعصر!

– لا تكن قاسياً إذن فتكسر!

غضُّ النظر عن ارتكابات الآخرين قسوةٌ. نِصحُهم بالعدل والإخلاص قسوة. مساعدة صغار الموظفين لين، وسماع شكاويهم لين. ما لك يا زهير بهذا وذاك!

– تأخرت يا سيادة المدير، أين كنت!

– في اجتماع ضروري، أعتذر، لم أستطع الاتصال بك.

– أعرف نوعية اجتماعات المدراء. شاهدوها معك في السيارة.

– لا أكذب عليك يا امرأة، يا عاقلة، أما هذه الـ هي فهي موظفة وتعيش معنا في سكن الدولة، أوصلتها بطريقي، بسيارة الدولة، هل في هذا خطأ؟

– أنت لا تراعي مشاعري!

– ترفَّعي عن وساوس النساء، أنت حبيبتي!

– لو كنت حبيبتك لاحترمتني!

– تعرفين أنني أحبك أنت، وأعمل ليل نهار من أجلك ومن أجل الأولاد.

– وما الفائدة، في المدرسة يعيرونني بثيابي البالية!

– أنت الوحيدة التي تجدد ملابسها في البيت.

ويتكرر الصراع، يزداد، يتدهور الحب إلى الحضيض، أي حب يعيش مع الفقر! أية مناصب يرتقي بها الفقير يرفع فقره معه إليها.

*

– أستاذ زهير، هل تشك في صدقي وإخلاصي؟

– أبداً لا!

– إذن اسمح لي أن أقولها بصراحة ولباقة وتهذيب!

– ما هي؟

– صفاتك؟

– تقصد أنني صريح ولبق ومهذب؟ شكراً يا صديقي!

– لا!

– أعرج؟

–لا

–فسِّر!

– أقولها لك بكل صراحة ولباقة وتهذيب أنك غشيم، ودرويش!

– تقصد أنني حمار!

– أعوذ بالله، لم أقل ذلك.

– بل قلته بكل صراحة ولباقة وتهذيب! شكراً يا صاحبي، أعرف ذلك، المشكلة في تربيتي الأولى! تربيتي القذرة!

– لا تقل سوءاً عن تربيتك التي نتشرف جميعاً بها!

– هذه مشكلتكم.

كي تصبح مديراً ناجحاً يجب أن تنظر للأعلى فقط. هي سُنَّةُ الإدارة، سر نجاحها وتفوقها ومقدرتها على الثبات والاستقرار على الكرسي على أقل تقدير. لا تنظر للموظفين المساكين كأشخاص وجدت الفرصة لمساعدتهم وعليك اغتنامها، فالحياة للأقوياء فقط، صادق الأقوياء، فتش عن ظل قوي وحارب تحت لوائه، ابرد أسنانك تصنع أنياباً في غابة الوحوش. هكذا قال داروين السلطة، البقاء للأفضل، من يعرف من أين يؤكل لحم الكتف هو من يستحق الحياة فقط.

*

– أخي، نجاحك كمدير متوقف على كيفية معاملة مرؤوسيك، طأهم بنعليك، اجعل أقرب الناس لك ينتظر على بابك ساعة قبل أن يسمح له بوابك بالدخول.

– أكره أن أكون كذلك! نجاحي في حب الموظفين لي وليس في كرههم!

–النجاح في حب رؤسائك لك، عندما تزورهم اذهب محملاً بالهدايا، وعد بترقياتك وعقوبات مرؤوسيك!

ما أسفه النجاح يا زهير! رشاوٍ وتدليس وموطئ قدم رؤسائك، وعلى العكس في الناحية الأخرى ستأتيك الرشاوى ويدلس لك كل من تدعكه تحت حذائك!

– حتى التدليس في القانون مسموح !

ويبقى زهير في عصاميته لا يخشى بها لومة لائم. يدعي السخرية من قدمه الصناعية التي لا تجيد الثبات على الصراصير من موظفي المراتب الدنيا، أو الانحناء أمام الكبار قصار القامة!

*

– نحتاج توقيعك الكريم يا زهير!

– تحت أمرك سيادة الوزير!

– خذ هذا الملف وضع توقيعك الكريم قبل توقيعي!

– يجب دراسته جيداً يا سيدي!

– ترفض التوقيع يا زهير!

اشتعل الوزير غضباً واستشاط غيظاً، موظف حقير، دونٌ، وساطته وسام الحرب فقط، يجرؤ على إغضاب الوزير! بلا كفارة!

شعر زهير بنفسه حشرة صغيرة في زاوية الصالة الفخمة، ورأس حذاء الوزير يحشره فيها، أسعفه بعض ذكاء لم يذكره صاحبه من قبل، فجمع أنفاسه وتفوه بعبارته الأخيرة:

– سيدي قد يكون هناك بعض الأخطاء التي قد تؤثر على توقيعكم الكريم، قانونية مواد المشروع تحمي الجميع!

– صحيح أنك موظف أعرج العقل وليس الرجل كما يقولون، غبي وحقير أيضاً، التقرير الذي بين يدي صحيح أيها المتفذلك، هذا ما تؤكده لي الآن بنفسك أيها المتفاصح! اغرب عن وجهي ولا ترني إياه مرة أخرى، الخطأ خطئي لأنني سمحت لحشرة حقيرة مثلك بدخول مكتبي! وأنا الذي وقعت تسميتك مديراً للمشروع القادم! غبي! لا ترى أبعد من أرنبة أنفك!

قلنا: كافئوه، بطل حرب، طز! بطل قال! برجل مكسورة تأتي لتطأ أرضاً ليست لأمثالك، صحيح مات من اختشى من شكله.

لم يكن الوقت كافٍ كي يستجمع زهير بقايا شجاعة، أو كرامة أو حذاقة، فقد دخل للتو رجالُ مرافقة الوزير وحملوه على أذرعتهم القوية وألقوا به أرضاً خارج المكتب! تذكر لوهلة قصة قميصه الأحمر، فغادر الوزارة آملاً بالبقاء في الوطن على أقل تقدير في زمن الآه.

التوت قدمه الصناعية الثقيلة، ولم يجرؤ أحد لتقديم يد المساعدة. من يجرؤ على الوقوف أمام ثورة وزير هائج!

*

لم يكن استرخاء زهير وحيداً في إحدى زوايا حديقة المنشية للمتعة، ولم يكن على موعد مع أحد، هو نفسه تساءل عن سبب جر قدميه له إلى هذا المكان العبق

بأحلى الذكريات، تلك التي انهال عليها بملح البحر لكي ينساها. لكن شعوره القاتل بفراغ الجلوس على رف المسؤولية قد يكون أحد أسباب وجوده هنا.

طردته العاصمة، لم تنفعه جميع الوساطات التي جمعها أو حاول تجميعها لإقناع سيادة الوزير بأن نواياه كانت سليمة. كان يظن أن تفانيه في العمل ليل نهار، في المكتب والبيت، في الإجازات الإدارية التي كان ملزماً بالتوقيع على جدولتها في بداية كل عام ولم يحصل على واحدة منها للترفيه عن نفسه وللاجتماع بأولاده وزوجته فيها دون منغصات العمل وزيارات مرؤوسيه والاستماع إلى شكاويهم وتقاريرهم بعضهم ضد بعض.

كان يظن أن المسؤولين الكبار الذين أشادوا به يوماً قد ينفعوه الآن. لكنه صار المتكاسل بنظر الجميع، ولولا قدم واهتراء أثاث منزله لاتهموه بالسرقة التي لم يتورع حتى أقرب الناس إليه من اتهامه بها.

"لو كان نظيف اليد لما كفوها".

"لو كان حقاً كما يبدو وفياً لما وضعوه على الرف."

"لو لم يكن حماراً لاستمر و ترقى لأرفع المناصب."

*

شجرة البلوط الضخمة قرب المتحف كانت منذ سنين عديدة موطن لقاءات الحب مع صديقة الثانوية، حبيبة المراهقة التي تقاسمت معه أجمل اللحظات، تذكر بسخرية، كفِلها الزمنُ المرُّ، أول لقاء له بها خارج المدرسة تحت هذه الشجرة

العملاقة، في الظل الرطب، تحت أجنحة الحنان الذي فقده للمرة الألف بتوقيف الوزير له وتعيين معاونه مكانه، آه على الوطن من جديد.

أحس بالظل البارد للبلوطة وطناً قديماً لطالما حنَّ إليه، كان يمر خلال السنوات السابقة قرب هذا المكان الذي أغلق لسنوات للصيانة! بعد فترة استمتاع البشر فيه رئة وحديقة ومقهى كبيراً يؤمه الجنسان فرادى وأزواجاً.

لم يجد مكاناً بين جموع الرواد، ظن في البداية أن الجميع يعرفه، يراقب حركاته وسكناته، لكنه تذكر "غشمنته" فقال لنفسه:

"ومن أنا حتى يعرفني جميع نافخي دخان نراجيلهم في فضاءات خيالاتهم؟"

في الركن القصي ثمة مكان واحد شاغر، قصده، بل قادته قدماه إليه دون وعي، إذ لاحظ بعد جلوسه وجود كثير من المقاعد الشاغرة هنا وهناك.

جلس وقبل أن يضع مفاتيحه وساعة يده على الطاولة جاءه النادل:

– أهلاً أستاذ زهير، أهلاً، والله زمان!

ظن زهير أن النادل يعرفه كمسؤول ولم يدر بطرده بعد، لهذا السبب يزيد من الترحيب والتهليل به.

– يبدو أنك لم تتذكرني، أنا محمود النادل في المنشية أيام كنت تأتي برفقة الآنسة زهرة! هل تزوجتم حقاً يا أستاذ!

صواريخ الكاتيوشا كانت تصرخ بأذنيه وهو يطلقها على دبابات الصهاينة، أما صوت محمود فكان صاروخاً موجهاً إلى صميمه!

– ليس من شأنك يا ... يا سيد محمود!

– الحق معك يا أستاذ! عدم المؤاخذة! ماذا تأمر؟ أرجوك سامحني، شعرت للحظة أنك بمنزلة ابني الذي أحب، وغادر لأجيال وأجيال، فأحببت الاطمئنان فقط، أرجو لك الخير، ولا تسئ فهمي أرجوك، نحن نكبر بسرعة وعقلنا يصغر كلما كبرنا، أنا مجرد نادل أمي لا أعرف سوى تقديم الشاي والقهوة، أرجوك سامحني يا بني.

سحب الرجل العجوز رجليه جراً وهو يشعر بخيبة مريرة! حطم منظر الرجل كل كبرياء زهير، أحس بواجب الركض خلفه كي يعتذر منه.

لن يجد الكلمات، تضيع الكلمات أمام صدق البشر، كما ضاعت أمام أنانية الوزير، أحس زهير بمخزون كبير من الدموع على وشك الانفجار.

"ماذا فعلت! ما ذنب هذا العجوز الذي جاء بالحب وعاد بالخيبة!

ألم أسأل أخي ابن أمي وأبي بكل الحب أن يقرضني بعضَ نصيبي من الميراث كي أضعه وديعة في المصرف العقاري، ستة أشهر فقط، مقابل الحصول على قرض مصرفي طويل الأجل ثمناً لبيت صغير، ثم أعيد المبلغ له بعد الأشهر الستة! ألم أجلب كل الحب وأعود بكل الخيبة، كم بكيت حتى الفجر، وأنا أتذكر تلك اللحظات، وها أنا ذا أكسر خاطر هذا الرجل الطيب!"

تردد زهير كثيراً، تململ في مقعده يريد النهوض كي يعتذر، لكن شعوراً بدأ يتملكه، يسيطر عليه، خشي أن يفضح نفسه فقرر الابتعاد عن هذا المكان.

"كل أعشاش الحب القديم أشواك وحرائق، كل الأحضان مهاوٍ نحو الردى، كل الأوطان خائنة! بل أنا الخائن الحقير، الحقير، الحقير."

نهض زهير يريد المغادرة لكن وطناً آخر صده كالجدار العازل، كالسد العالي، كالحلم الكابوس، كدمع يتشظى في الكون أشلاء دبابات وأطفال ملتصقة بالأرض خلفها، كجثث نساء وأطفال صبرا وشاتيلا قرب جدران المخيمين. كما الصرخة تهز الكون، تنطلق من ناغازاكي وهيروشيما ولا تنتهي بتشرنوبل أو بتسونامي؟

– من تسونامي!

– زهير، هل أنا تسونامي! أهذا أنا برأيك!

وانهار زهير على كرسيه كسكير فقد آخر شهيق في الحياة، خافت المرأة، بحثت بعينيها في الجموع فلم تر سوى محمود0

– عم محمود! عم محمود! أرجوك تعال.

– أمرك، ولكن!

كيف للحمل أن يعود إلى عرين الأسد! عاد محمود، تلبية لنداء السيدة، وفوجئ بزهير وقد غاب عن الوعي للحظات، رش على وجهه بعض رذاذ الماء وانتظر شتيمة ما، إنها لقمة العيش المرة!

–قهوة يا محمود إذا سمحت.

– أمرك مدام!

وضعت مرفقيها على الطاولة مقابل زهير، الذي أفاق للحظة من ذهوله. إنها هي بعينها، بلحمها ودمها.

– ماذا تفعلين هنا؟

– أهذا ما تستقبلني به بعد فراق عشرين سنة؟

– أنتِ من تركتني لكي تتزوجي بحبيب القلب!

– تعرف بنفسك أنك الوحيد حبيب القلب!

– لذلك تركتني وذهبت إليه!

– أنت الذي تركني ورسالة وداعك مازالت معي! تتهمني بالخيانة والتواطؤ و..و.

– ألم تكن فعلتك تلك خيانة وتواطؤاً؟

– أنت دكتور كما سمعت، هل تستطيع بناتك الزواج بمن لا ترغب، ورغماً عنك!

– إذن تعترفين بالتواطؤ!

– اسمع يا زهير، لم أتوقع أن تستقبلني هكذا بعد عشرين سنة من الفراق، أنا أحبك، أحبك، وما أزال أحبك، ومستعدة الآن أن أعود إليك، على الأقل أملك قراري الآن.

"زهرة أيتها الحبيبة التي كانت تحمر وجنتاها لكلمة حبيبتي، تأتيني اليوم وحد سيفك على عنقي، وكم طلع الصبح على حلمي بسيفك هذا!

تأتيني في زمن الانكسار الذي بدأ بكلمة وداع رميتها على قصاصة يوم جروك من قلبي إلى سرير زوجك!

آه يا زمن الآه".

– القهوة مدام.

– شكراً يا محمود، ما اسم ابنك الكبير؟

– سعيد.

– شكراً أبا سعيد، ألم تعرفني!

– عفواً، العمر له حق!

خشي محمود التدخل بما لا يعنيه، فتعود تنهال عليه وبالات زهير. نظر بعيني زهير الكئيبتين، وقال بانكسار:

– أنا آسف يا أستاذ، آسف، أرجوك سامحني!

– بل أنا آسف يا أبا سعيد، حقا أنا آسف.

ونهض زهير يصافح محمود حامل ذكريات الحب الأول وحاميها. رحل محمود وسط ذهول زهرة، فوقفت منتصبة القامة، وضعت كفيها على خصرها:

– تغيرت كثيراً يا أستاذ زهير، أنا آسفة أيضاً، خطئي وحماقتي فقط هما السبب، كنت أظنك ما تزال على العهد!

– اجلسي يا عزيزتي اجلسي، لي حديث معك لا تنهيه الساعات.

– لن أجلس قبل أن تعتذر عن هذا الاستقبال السيئ.

– آسف، آسف، مليون آسف.

*

يطأ الرجل طرف قدمك، أو يضغط دون قصد عليك في المترو أو الحافلة فيعتذر منك، وقد يعتذر منك إن وطأت قدمه أو دفعته، هذا في أوطان الغير، أما في

وطني الحبيب فقد ترى الصورة مقلوبة، يدفعك أحدهم فتسقط تحت شذر عينيه ولسان حاله يستفزه لينهمر عليك ضرباً وشتماً.

الحقارة فن لا يفهمه إلا محترفوها، يكون أحقر الناس منزلة ومكانة، عقلاً وتعقلاً، فهماً وإدراكاً، وعياً وموضوعية، شرفاً وأخلاقاً، ثم يملي عليك من علياء غروره وكبرياء طيشه الرفعة والحكمة والسلوك والهداية والقيم!

آسف، ما أسهلها، وأبسطها، وما أصعبها وما أجلها! آسف سكبت عليك إبريق الماء الغالي. آسف رصاصتي غيرت اتجاهها نحو قدمك، ربك ستر لم تأت في مكان خطير! وكأن القدم حقيرة المكان ولا قيمة لها! آسف بصقت بوجهك، الهواء القوي هو المسؤول. آه يا زمن الآه.

– لم تكن صامتاً من قبل، هل أزعجك وجودي حقاَ.

– كيف تقولين هذا، وأنت تعرفين أن لا أحد في قلبي سواك!

–إذن لم هذا الاستقبال البارد! القاتم، العدائي؟

– ألا تخشين أن يرانا أحدهم معاً، أنت متزوجة، لك زوج وأولاد، وأنا كذلك، معارفي كثر، وصيادو الماء العكر أكثر.

– أنا لا أخشى بحبك أحداً.

– أين هذه الكلمات من هجرك إياي والذهاب...

– أرجوك لا تعد ملفات الماضي، دعنا نفكر بالحاضر!

– ومن أين يولد الحاضر أليس من رحم الماضي؟

الرحمة من عند الله تعالى، لا شك بذلك فقد اختصها لنفسه، والنقمة نأتي بها من كدرنا، وأنانينا وسوء أنفسنا!

الحب الأول ولد تحت هذه البلوطة، والنفس اطمأنت، وطمأنت أن لا نهاية لهذا الحب سوى الموت مثنى!

زهير يا زهير! وهل يعود الميت إلى الحياة من جديد؟

دفنت قلبك قبل عشرين عاماً في كهف النسيان كيلا يراه أحد! مللت النسيان، مللت القهر والحرمان من الحب! مللت البوح للمخدة بالدمع، بالآهات، وتأتي زهرة السماء تنكش عفن الحياة لتخرجه من جديد!

- آه يا حبيبتي!
- تخرج من فيك كما لو كانت من فم عجوز!
- ألا ترين الشيب في رأسي!
- أريد قلبك، حبك!
- آه يا زمن الآه!

*

وتكررت لقاءات العاشقين، لقاءات الخيانة. كبرياء محطم، وقلوب حرقتها الأيام والسنون، في السر اللقاء، وفي السر الكلام، وفي السر التفكير.

"إلى متى؟ إلى متى؟ إلى متى أنت قلبي؟"

– نحن خونة!

– أنا سعيدة!

ما أقواك يا حواء! ما أعظم قوتك، وجبروتك!

تنهار فيَّ كلُّ الرجولة أمام كلمة "خائن" وكنت أدعي الرجولة والجبروت ومحاربة الكون كل الكون وما فيه من طواغيت الآباء والأخوال والأعمام.

لكنها زُوِّجت برأيهم ونصحهم وضغطهم وتحطمت بزواجها كل المرايا.

كل الزهور بعد زهرة صارت أشواكاً.

كل اخضرار الجنان انقلب هشيماً يابساً محترقاً، تتلاعب به نسيمات الهواء الرضيعات!

ما أشدك فظاعة يا حواء!

تأتين وأنا في قاع نفسي ألعق بعض كبرياء حطمته مدنية المناصب والرشاوى والدسائس والفساد في الوطن المستسلم لأبنائه التائهين.

تأتيني قشة أتعلق بها حلماً عاد يرفع روحي إلى بعض وجود بعد أن سئمت الوجود.

تأتين أملاً أخشاه وكنت أضحي بعمري لأجله.

تأتين حباً وقد نسيت الحب!

– ترحبين بي زوجاً أم عشيقاً أم صديقاً؟

– مستعدة لحريتك بعدما صرت صاحبة قرار.

– ألا تفكرين بأولاد أنجبتهم؟!

– ليأخذ أولاده، سألد لك الأولاد الذين كنا نحلم بهم!

"أين الأمومة، أم هي براكين تخمدينها بلعابك كما أخمدتني أو ظننت !يا زمن الآه، آه".

*

– أخي، أتذكرُ مبلغاً من المال قدره 1700 ليرة!

– لا، أي مبلغ هذا ولمن؟

– إنه للوالد، ثمن تذكرة سفر أيام كنت طالباً!

– نعم، الآن تذكرته، ما الأمر!

– إنه مني.

لم يطلب الوالد مرة المبلغ من زهير، وكيف يطلبه وقد وهبه له يوماً، هل هي إحدى أكاذيب الأخ؟ ولِمَاذا تتم المطالبة في أواخر كل شهر، وفي الخامس والعشرين بالتحديد!

يدخل في جيب الشيخ، رجل الدين المشهور ما لا يحصيه الموظفون، ويدخل في عنق الأخ ما لا يحصيه التجار، وعلى الموظف الحقير أن يدفع حق الابن على أبيه بعد سنين!

*

- سوف نبني بيتاً كبيراً وواسعاً، نملؤه وروداً وأزهاراً.
- بل أحبذ بيتاً صغيراً، مللت من تنظيف بيت أهلي الكبير، ويكفينا بنت وولد، سنكَوِّنُ أسرةً نموذجية.
- سيرغب الولد بأخ!
- والبنت ستطلب أختاً.

أحلام وأمان يصوغها الحب الأول ببراءة مراهقين، وعندما تنبت الأشواك خضراء في طريقهما يصرخان:

- نأبى طغيان الجيل السابق، نحن أدرى من غيرنا بمصالحنا وأعرف بمستقبلنا.

وتأتي مدحلة الأهل، تُعبِّد للأبناء طريق الحياة، تُزوَّج زهرة من ابن عمها، رغماً عن حبها المكشوف للجميع، وانكسار مشاعرها المعروفة نحو زهير وشموخ طموحها بالزواج ممن تحب.

قالت والدموع تجرح بتلتي خديها الطريتين:

- تعرفون جميعاً كما يعرف العالم أجمع، قصة حبي مع زهير، فلماذا تحرمونني من نهايتها!

قال والدها ضاحكاً من براءتها:

- وها نحن ننهي القصة فعلاً.

هجمت عليه تشد قميصه وتبكي على صدره:

– أبي كم قلت أنك تحبني! هل هذا هو الحب؟

– ستجدين الحب مع ابن عمك الذي يرغبك ويحبك. عليك أن تنسي زهير. زهير بلا مستقبل، بلا أمل. كيف تحبين شاباً بمثل عمرك، عليك انتظار نجاحه أو فشله بعد سنوات وسنوات. اسمعي يا ابنتي، أنا أحبك فعلاً، ابن عمك طبيب مشهور، سيدللك ويبهجك، كان ينتظر تخرجك منذ المرحلة الثانوية، وها أنت في السنة الأخيرة منها. خطوبتك اليوم توقف طلبات الناس المتتالية ليدك، وتردع زهير عن متابعتك، فليلتفت هو أيضاً إلى دروسه. أليس له أهل يوجهونه!

أرسلت زهرة رسالة الوداع الأخير:

"زهير، حبيبي، لا مجال لي للرفض، جميعهم يريدون تزويجي من ابن عمي، جميعهم، أمي وأبي، أخوالي وأعمامي! مصيبتي أنني أحببتك، ومصيبتك أنهم يرغموني على الزواج من غيرك. وداعاً يا حبيبي!"

كلمات قليلة تختصر عامين من الحب العارم، بضع كلمات هي صك استسلام اليابان في الحرب العالمية الثانية، لكن اليابان أرهبت بأول قنابل تدميرية من نوعها، أما زهرة فأي عاصفة دمرتها كي تعلن استسلامها! إنها الخيانة، خيانة القلب الذي نذر نفسه للحب، لا لشيء سوى الحب، خيانة، خيانة، خيانة!

أعاد زهير الرسالة إلى مصدرها مزيلة بكلمة واحدة :

"خائنة."

"كلمة هي الوحيدة التي قد ترش على الجرح بعض تراب، فقد يدفن شيء من ألم الذكرى للأبد، وما نفع القلب بلا حب، لماذا خلق الله القلوب، لتروية الجسد بالدم؟ لا، بل للحب، وما دم الجسد إلا رسالة تفيد أن الحب ما يزال رابضاً فيه، إنه أوكسجين الجسد، ذرات الحب هي التي تنقي الخلايا من مفاسد الجسد وجراثيم الأحشاء، الجسد عبد مصنوع كي يحمل الروح ما دامت حية في فضاء الأرض.

الروح هي رسالة الحب المودعة من قبل السماء في لجة الأرض كي تنعم بفهم الله خالق كل شيء بالحب. نعم، لن أكفر، أحب الله والملائكة والسموات والأرض، أحب، أحب كل شيء طالما الحب في قلبي، أما الآن وقد خان الحبيب، فما نفع الحب!

آه يا قلبي لو أستطيع نزع الحب منك.

جبار أيها الحب، جبار أيها الحبيب.

جبار، جبار، جبار".

*

تزدحم الطرقات في المدينة عند الظهيرة، بعيد الثانية عشرة بقليل، معظم الموظفين يهربون!

طلاب المدارس يخلون بيوت العلم لآخرين يدخلون على روائح أسلافهم.

لكن الوقت الآن بعد العصر. لماذا يصدم زهير الناس في الطريق بكتفيه تارة وبجسده أخرى!

لم يدر كيف وصل إلى المستشفى!

الرجل الخشبية موثقة جيداً، يحملها بثقة أيضاً، قليلون يلاحظونها، لكن السقوط غير طبيعي!

في الباصات، حافلات النقل الداخلي الكبيرة وشبه الفارغة يسقط زهير كطفل بدأ للتو مشيه!

يرفع قدمه الثقيلة بثقة إلى الرصيف فيسقط عليه فوقها! هل بسقوط القلب في مستنقع الآه يسقط الجسد أيضاً.

ما هذا الشباب الخاوي من فتوته!

ما هذا الضياع في مقتبل العمر!

– نتائج تحاليلك المخبرية توجهني لتنويمك في المستشفى فوراً!

– أكره المستشفيات! لا تؤاخذني يا دكتور! أكره المكوث في المستشفى، أكره الشفقة، أكره أن يخدمني آخرون.

– لكنه نزيف قرحة عفجية عبر الأمعاء!

– نزيف؟ لا أحس بأي ألم في معدتي!

– هذا يؤكد النزيف، الدم قلوي والألم من حموضة المفرزات، يتعادلان فلا تشعر بألم!

– لن أكون ضعيفاً، ولن يعرف أحد بضعفي، سأبقى واقفاً حتى الموت!

– ليس في الأمر عار أو عيب، أنت دكتور جامعي مثقف، لا يمكن للمنزل حمايتك من تداعيات النزيف العفجي، وإن رفضت، سأضع الصداقة جانباً، لا تؤاخذني، سأتصل بالشرطة إن قاومت، قد تنزف نصف دمك دون أن تشعر بذلك!

بالأمس كان شامخاً يصارع العدو ببسالة الجندي الفدائي . كيف يتبدل المرء بين يوم وآخر، هيكل جسم صحيح، لكنه منخور في أطراف كل الأحشاء، الأعصاب التالفة، والقرحة النازفة، وخيانة الجميع.

جبار أيها الإنسان، كيف تستطيع إخفاء كهوف خوائك!

رضخ الطبيب لمشيئة صديقه وشدد على تنفيذ تعليماته وقرر متابعته يومياً بالزيارات لمراقبة تطور وضعه الصحي في البيت دون إفشاء السر الخطير!

تكرر النزيف وتكرر الألم، حتى بعد استعادة الـ 1700 ليرة!

بعد تنظير مزعج ظهرت زهرات القرحة. أم وصغيرتان.

الفم المفتوح البالع خرطوم التنظير لم يستطع إيصال صوت حرف واحد، للطبيب الجاد بشرحه العلمي لصديقه.

توقف التفكير عند صورة القرحة الزهرة الأم، والقرحتان الزهيرتان الابنتان.

قال لنفسه:

"كيف يستطيع هؤلاء الأطباء تشبيه جرح بزهرة!"

وتذكر جرح حبيبة الفتوة والمدرسة، لقد كانت أيضاً زهرة، وكانت إحدى تقرحات الألم التي لا تندمل مع الأيام. رغم تكرار الجراح المتراكبة، بعضها فوق بعض.

يا للسخرية.

أنا بهن مصنع حب إذن!!

يتابع الطبيب الحديث عن أنواع القرحات وأشكالها الهندسية، وصديقه فاتحاً فمه مظلم الوعي إلا في سخريته من نفسه.

"كنتُ صادقاً بحب زهرة وراحت فتزوجت، وصدقت بحب جاسمينا، وتركتها لوطنها وبلادها، وصدقت بحب زوجتي ابنة عمي، ورفضت حبي لعدم ثقتها بتاريخ قلبي. ما العمل؟"

أخرج الطبيب خرطوم التنظير الأسود الطويل، وشعور الغثيان المستمر يزعج المريض المهان، دمعه نزل في جوف المعدة، عله يسقي زهرات القرحة.

– طريف أمركم معشر الأطباء، قرحة لعينة وتدعونها زهرة؟؟

تذكر الطبيب الصديق زهرة، حبيبة صديقه، فابتسم وقال:

– بعض الزهرات يصنعن القروح، أليس كذلك؟؟

ضحك الصديقان على زمن ولى بالشباب وعنفوانه وشقاوته، وعادا إلى لحديث عن مشكلة المرض.

أن تصمد أمام الريح شيء وأن تقاوم أقرب الناس شيء آخر! عشر السنوات الأولى من طفولة زهير كانت الجامعة التي حصل منها على أخلاقياته، لم يكن الأب قد تزوج ثانية حتى ذلك الوقت.

في مكتبة الأخ الأكبر المنزلية تكدست كتب تربية الأطفال، جاء بها لنفسه، وقرأها زهير فقط!

مؤلفو الكتب والروايات والمجلات الطبية صاروا معاً المربي والمرشد والمفقِّه.

لماذا المثالية في التربية أيها المربون الأفاضل! ألا تخشون انصياع الناس لإراداتكم الخيرة!

لماذا لم يؤثر شارلوك هولمز بزهير!

لماذا لم يؤثر محمود ياسين وغوار الطوشي بزهير!

لماذا يبقى صاحب الصورة المثالية في ذهن ابن العاشرة جان فالجان!

لماذا لم يستمر الأخ الأكبر راعياً معترفاً به، وهو الراعي بالوراثة للوالد ومثال الرفعة والسمو بعد هجرة الوالد إلى زواجه الثاني!

رائحة الخيانة تنبعث قبيل نضوج الجريمة!

هذا هو السبب!

تقريرية في الحساب الذي لا يعرف المواربة!

حقيقة وما أقسى الحقيقة! ما أفظع أن تكتشف أنك ابن الحرمان، في حين تصرخ في الأجواء أنا الصمود أنا الثبات والقوة التي لا تضعف.

قوة المحرمات والخطوط الحمر!

كشف الفقر والحاجة والعوز خط أحمر!

كشف شقاق الأسرة واهتراء أواصرها خط أحمر!

كشف ظلم وقهر كبيرنا لصغيرنا خط أحمر!

الحب خط أحمر!

مخالطة الآخرين خط أحمر!

العائلة مقدسة، وما عداها تراب وقاذورات.

كشف الحقيقة فضيحة ومن يرغب بفضيحة؟

تسقط في الشارع أمام الجميع، تنهض وتنكر أنك سقطت!

تنزف معدتك، يتغلغل السرطان في غددك اللمفاوية وتنكر أنك مريض، وعندما يحقنك الطبيب بالمورفين تخفيفاً لآلامك الجسدية يطلقون إشاعات الإدمان عليك!

من يطلقها! يطلقها من يحرمك من الأنين تحت سياطه!

يروج لك الأقربون جنونك، ويصرون ألا تطلق صرخة "لا" في الهواء المغلق عليك في غرفة الإنعاش!

رحماك ربي من هذا العذاب...رحماك. رحماك.

*

الشهية صنع الآمال والأحلام والحاجة والحرمان. الشهية غير الشهوة، وقد يتداخل المصطلحان ويتحدان إذا كان الهدف يمس الروح والجسد معاً.

إنها تفاحة، نعم تفاحة حمراء مشوبة باصفرار جميل، تقترب من شفتيه الغليظتين مستسلمة لأسنانه الطويلة القاطعة لشريان الشهوة. بكل دلال وغنج تذوب بين الأصابع الغليظة، لا تغضبها خشونتها، تسيل بحلاوتها اللعاب، وتصبح مضغة سائغة بين أضراس صفراء في بركة من فوضى الفم، كريه الرائحة، فتعطره، تنكه الأجواء المحيطة برذاذها العبق بعذرية ابنة الفاكهة.

تضيع في الفم الكبير خلال لحظات استطالت سنوات في شهية زهير الصغير وهو يراقب أخاه الكبير يستمتع بفاكهة لا يأكلها سوى الأغنياء ومترفو الثراء وقتذاك!

كانت تفاحة الشهية الأولى، أو الشهوة الأولى، لم تستطع أرطال التفاح الأوروبي ولا الوطني استرجاعها.

أدمن زهير أكل التفاح بعد أن كبر واستطاع شراء التفاح بعد توفره للجميع، فقراء وأغنياء، لكن تفاحة واحدة لم تستطع دخول منافسة اشتهاء قضم كبير العائلة، ضحية النيل الأخوي الكبير.

*

".....المجتمع غابة، والبشر مختلفون اختلاف سكان الغابة. في الغابة، الطائر الغريد ينشر أعذب الألحان في فضاءاته الواسعة الخضراء والزرقاء، وعندما يحط

على غصن بنى عليه عشه، حيث صغاره، يعود فيه الكائن المكافح للحفاظ على حياتهم، فالأفعى تتحسس رائحة غذائها عن بعد، كما يرى الطائر الدودة الزاحفة من علٍ.

الأفعى الزاحفة نحو الغصن تبحث عن غذائها، كي تعيش حياتها الطبيعية فقط. هي لا تتعدى على حقوق الآخرين، بل تدافع عن حياتها والموت جوعاً! وهي نفسها عرضة لطائر أكبر قد يطبق عليها من عليائه ليجعلها طعاماً لصغاره.

السبع لا يعتدي إلا إذا كان جائعاً، شأنه بذلك شأن جميع سكان الغابة!

الإنسان وحده الذي يعتدي ويقتل، لأن العقل أحياناً يصاب بمس الشك والريبة!

"إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب."

مساكين من نضع عليهم حكمنا وأقوالنا المأثورة!

في الأسرة، الغابة الصغيرة، عليك أن تكون ذئباً.

لو لم يكن والدك ذئباً لأكله أعمامك!

لو كان والدك ذئباً لما أكله أعمامك!

إن لم تكن ذئباً يأكلك أخوتك!

لو كنت ذئباً لما تجرأ عليك الجميع وأكلوك!

الحسد نعمة!

لولا الحسد والحقد لوقعتَ في حسد وحقد الآخرين، وسيطروا عليك، وعلى رزقك، وميراثك! وزوجتك ربما! ولقمة عيشك!

كن ذئباً أو لا تكون شيئاً!

الحسد يقتل صاحبه، حكمة صنعناها نحن الحاسدون، كي نبعد الطيبين البسطاء عن نعمة الحسد!

لماذا أصيب أخي الطيب المسكين بأمراضه!

لو حسدني زهير على مالي ورزقي لما أصيب! الغباء والرومانسية هما السبب!

الشعر والغزل والخيال وأخذ الأمور بعفوية وبساطة نعمة يحسد نفسه عليها ويترفع بها علينا"!

سأل زهير أخاه ذات يوم:

"هل قرأت كتاباً غير كتب الدراسة؟"

كانت أعماقه تسخر من أخيه المتعلم، وكان المتعلم يرجو أن يستمر بسخريته الحمقاء، فمن يضحك أخيراً هو من يضحك كثيراً!

"أصيب زهير بالسرطان، فليرحمه الله إن شاء، لكنها مسألة فيها نظر! في الحياة حساب كما في الآخرة!

لماذا يدعني الله أصيب ما أشاء من كعك الحياة المحلى بأشهى الكريمات، ولا أصاب بمرض السكري؟

أنا الأفعوان والذئب والوحش والسيئ برأي أخي الطيب المغلوب على أمره المسكين الغبي الذي ترك بلده للتعلق بمشجب العلم والرفاهية والشهادات العليا!

لو كان هناك قانون ميراث حقيقي لطالبته بتعويض مالي عن جهلي الذي يدعيه أمام ثقافته التي حصل عليها من خلال تجواله العالمي، ولغاته العديدة وثقافاته التي يغزلها شعراً وروايات!

المال عصب الحياة! صحيح. لذلك أعصابي قوية، ولذلك استطعت امتلاك المال!

حقي! نعم وألف نعم!

نال شهاداته التي تساوي كما يقول هو وجميع مثقفيه ملايين الدنيا! إذن المعادلة صحيحة! بل قد أكون أنا الخاسر!

أخذ ملايين الدنيا في ورقة علقها على الجدار.

وأخذت الملايين النقدية التي أستثمرها وأصرفها في طريق سعادتي! ليعش هو بسعادة الفهم والشعر والشهادات المعلقة على الجدران. وليتركني أعيش في سعادة جمع المال وموائد الطعام وأنواع الشراب.

كلٌّ له ماله الخاص، أما أن يأتي بملايينه ولا يراها، ويطالبني بملاييني! فهذا أمر لا يقبله عاقل في غابتنا الصغيرة!

لو نظر أخي الصغير الحبيب المغفل على شهاداته للاحظ بأم عينه الذباب يفرز فضلاته عليها، ولا يستفيد منها سوى بعض العناكب تنسج خيوط مصائدها خلفها!

ما نفع الشهادات المليونية بدون دراهم تؤطرها، في مكتب أو عيادة، يذهبون لأوروبة يصرفون أموالنا للحصول على أوراق لا تسمن ولا تغني من جوع!

عشرات السنين تصرف للحصول على الشهادة، يكونون فيها عاطلين عن العمل يسترزقون من أموالنا نحن الذين بقينا نزرع الأرض ونجمع الروث لتدويره في تغذيتها

كي نحصل على حصاد وفير. وعلى البيدر يأتي هؤلاء المثقفون ويشاركون الجني! هل هي عدالة بحق السماء!

ما نفع شهاداته العليا أمام السرطان الذي حل بغدده اللمفاوية!

في الحياة قصاص! والسرطان قصاصه، ويأتي ليطالب أيضاً بالمال أدفعه على مرض لا قيام منه!

أخسر مالاً جمعته بالعرق والدم كي يعيش أبنائي بشرف وعز ورفاهية، من أجله! هي قسمته أخذها منذ وفاة أبينا!

لو أراد الأب العادل كما يصفه لأعطاه كل شيء. كان الوالد مطلق الصلاحية في الفرز والتوريث، لماذا لم يعطه نصف هذا المال؟! لأنه يعرف أنه حصته من الدنيا تلك البزة وربطة العنق ومجالسة المسؤولين وكبار الشخصيات من المدراء وغيرهم! ويأتي ليأخذ دراهم جمعناها لنأكل ونشبع بطوننا! نحن نأكل اللحم والطعام اللذيذ، وهو يأكل المناصب وشرف المعالي والسؤدد. لكل سؤدده!

حتى المخدرات أدمنها بحجة التداوي من السرطان! وهل نستطيع إدمان المخدرات! حتى هذا الحق يودي بنا نحن الأغبياء الأغنياء إلى السجن أو الاغتيال.

أما هو فيستمتع، يعيش نشوة الخيال فوق ما يتمنى بحجة السرطان! فليذهب هو ومن يساعده إلى الجحيم، لن يأخذ من مالي درهماً واحداً.

أخي، نعم، أخي وأحبه، أكذب إن قلت لا أحبه، لكن الحياة أقوى من كل شيء، حتى هو، لولا الغباء وفلسفة الثقافة العجفاء لصار عبداً للمال مثلي كما يتهمني، ولا أغضب منه كما يغضب مني!

أصيب بالقرحة، لأننا ظلمناه!

حجة أخرى للغباء المطبق والبساطة والغشمنة!

لو كان ذئباً مثلي لما أصيب بالقرحة وربما لما ركبه السرطان في أصعب منطقة من جسمه!

السبب نفسي! طبعاً نفسي! يمكن لكل منا أن يكون شفافاً ورقيقاً أو يكون قاسي القلب والجلد لا يؤثر به مؤثر.

نحن نصنع أنفسنا بأنفسنا. في الأسرة الواحدة عشنا، من ذات الأبوين، لِمَ يشبُّ هذا ذئباً والآخر حملاً! هذا هو السؤال!

الخبز لا يكفي الجميع! الغذاء لا يكفي الجميع!

هذا هو السبب، نعم إنه السبب، بعضنا يأكل الخبز واللحم لأنه درب أنيابه عليها، والآخر يجب أن يكتفي بخيال الطعام، إنه أخي الذي يقول ذلك ولست أنا.

يقول: خبزي قصيدة شعري، وخمرتي صوت فيروز!

لكل خبزه وخمره إذن!

ليدع القرحة إذن تأكله، فالشعر لا يمنع الحموض من الانحدار إلى معدته وهو يشم رائحة اللحم المشوي في منزلي!

وصوت فيروز لن يردع رأسي من الدوران بعد كأس نبيذ فرنسي معتق! بل سيزيد قرحته ألماً!

أنا أدخن وأحتسي الكحوليات كلها، ولم أصب بسرطان أو قرحة، بينما العكس في حاله.

لا يشرب ولا يدخن ويحافظ على جميع قواعده الصحية التي تعلمها في المدرسة والجامعة، ويصاب بالسرطان والقرحة!

يأتي ليطلب ثمن المخدرات لتخفف عنه آلام السرطان!

يا للمثقفين المساكين!

*

أخو زهير رجل دين ورث العمامة عن والدهما، يأتيه الناس فرادى وجماعات للتبرك بدعائه ولثم يده بالنقود ثمن الدعاء.

ولما كان لكل وزنه كان الدعاء يزيد أو ينقص! والوزن ليس بحجم الجسد أو عدد أرطاله، بل بالمبلغ المودع في الكف الطاهرة!

كان هناك رجل يشكو أخاه الظالم والدتهما، فهو لا يكف أذى زوجته عن حماتها، ولا يزورها إلا مضطراً لرفقة ضيوف يجبرونه.

لأول مرة يلاحظ غضب أخيه الشديد، احمر وجه الأخ الشيخ وهو يقطب حاجبيه ويحوقل ويتململ وكأنه على مقعد من جمر.

– لقد أوصى الرسول الأعظم بالأم ثلاثاً وأوصى للأب بواحدة! ألم يقرأ هؤلاء الحديث الشريف؟

إلى متى نعلمكم أيها البشر أن الله تعالى وضع الجنة تحت أقدام الأمهات. إنه في النار، أبلغ أخاك الأخرق كلامي ولا تنقص منه حرفاً واحداً، في النار نهايته وبئس المصير، هو ملعون يا ولدي من يعق والديه.

قال تعالى: "وبالوالدين إحساناً".

وقال: "ولا تقل لهما أف، ولا تنهرهما."

ألم يقرأ أخوك المارق كلام الله تعالى؟! ألم يدخل مدرسة؟

ألم يقرأ القرآن الكريم!

كان جميع الحاضرين قبيل لحظات في بشر وسرور لحديث الشيخ عن الجنة وحور عينها، لكن سؤال أحمد البدر عن مخاطر عقوق أخيه قلب الجلسة إلى ذلك الوعيد والسخط والغضب.

تململ زهير وهو يرمق أخاه الشيخ الوقور يصب جام غضبه على المسكين الشاكي وكأنه هو العاق الذي تستحق عليه اللعنة.

شعر زهير بالغثيان، فسارع ونهض خارجاً بسرعة، حيث الهواء المنعش.

لحق به أحد تلاميذ أخيه من الشبان الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدين الحنيف، وكان شديد التأثر في الداخل.

– ما بك دكتور! عساك بخير، العم قلق جداً عليك وطلب عدم مغادرتك بيته قبل الاطمئنان عليك!

– ادخل وطمئنه إذن، أنني بخير.

تذكر زهير أخاه الشيخ الوقور وهو يوبخ والدته يوم شكت له زوجته وظلم أبيه لها بزواجه الثاني وهجرها.

قال الشيخ الصغير آنذاك:

– إنك لا تشكين إلا الهجر، ألا تشعرين بالخجل! أصبحت جدة وتفكرين بالجنس!

كان زهير صغيراً وقتذاك، كان يوبخ نفسه كثيراً كلما تذكر تلك الحادثة. كيف لم يأخذ قبضة تراب ويهيلها بوجه هذا الأخ الكبير العاق!

لا يهم كبير هو أم صغير! كان يحفظ تلك الآيات التي رددها اليوم أمام مسامع الجميع في قاعة مواعظه المظلمة!

يا للدين، لقد صار هو الآخر سلعة في يد مرتدي ملابسه الشريفة من غير الخلص له!

لم يقبل هذا الشيخ يد أمه يوماً. بل كان وما يزال يسد أذنيه بالطين تارة وبالعجين تارة أخرى وهو يسمع شتائم زوجته لحماتها!

لماذا تعطى يا رب الأمثلة من أفواههم!

كيف تعظ وتشتم الآخرين وأنت تشتم بها نفسك! أم أنك فوق البشر!

عندما أسر زهير الأمر لأحد أصدقائه ضحك الصديق حتى قلب على قفاه.

– لم تضحك! أكاد أنفجر من الغيظ من الرياء والازدواجية وأنت تضحك! إنه أخي ولا أستطيع بث سري إلا لك وأنت تضحك!

–أضحك على بساطتك يا صديقي ! – إنها المصلحة! المصلحة!

المسرب الخامس

على شفير الوداع

يجد زهير نفسه ذات غربة جديدة، في إحدى دول الخليج، حيث المال المغمس بقهر الحاجة.

كيف يتساقط الألم شظايا في الصدر!

كيف تنمو في الروح الأوجاع! وتتسمر في اللا شيء أحداق العيون، تصلب أثواباً في مهب الريح! يتسابق الجنون والغربة في ميدان العمر، ويبقى الزمن الحكم الأخير! الحاجة! ما الحاجة؟

ما الذي يعلقنا على أشواك الغربة، الحاجة أم الخنوع لليأس المسيطر بفعل مخدر بعض الدراهم في اليد التي أبت المد لمن قد يتصدق!

قبول الصدقة في عرف كثيرين حرام! ليسوا أنبياء، فلم التحريم عند زهير، لا أحد يدري!

كبرياء، أم أنفة، أم غباء!

الغربة ألبستك وكستك حتى الذقن التي أشابها بياض الثلج المتسلل نحو نخاع العظم!

الغربة حمتك من مرأى جلاديك الأحباب!

الغربة مدت لك أدوية أمراضها! ونفقة جراحاتها!

الغربة كشفت خلف قدسياتك سوءاتٍ التحَتْ وتثَوَّبتِ الحرمة!

الغربة غربال العمر لا يبقى فوقه سوى البطين! وليس أي بطين!

الغربة أشواكها لا تُسيل سوى فاسد الدم فيك فاغبطها!
يا للغربة! ياللغربة! يا للغربة!

*

في الصحراء اللامتناهية تموه أنظار زهير الوحيد.
لم لا تقتلني لحظة الموت التي أحياها الآن؟! شفقة على عمري الفاني بغير فرح! أو نكاية، بانتظار آلام جديدة!!
هل سئم الموت مني وأنا أدَّعيهِ في الحياة! أم رأى في مد عمري موتاً جميلاً لي!
سئمت (أنا) التفكير بالموت، فهو غذائي ورجائي.
مات التشاؤم يوم نسيت لعبة الأمل! كما مات التفاؤل فيَّ يوم مزقت آخر خطة للعمر القادم.
اكتفيت يا دهر من دنياي، فأنا الآن رهن أبنائي!!
لم يبق لي إلا الصوم!
لم تبق لي إلا الصلاة!
لم يبق لي إلا القمر يضيء، ينير، فأستضيء وأستنير وأهتدي.
في ظل نورك يا بدر البدور يبقى فيَّ الليل عش أمان، فارحل أيها النهار عني!
آلامي تساقطت من نفسي الأبية إلى جسدي المستكين، وهذه راحة ما كنت أعقلها!
آخ من آلام الظهر! آخ من آلام المعدة! آخ من آلام المفاصل! آهات، بل آخات عديدة، لم تساو آه القلب وآه الظلم وآهات الروح مرة!

هل هو نضج فكري أم تخاذل وخنوع!
أحس اللامبالاة نحو جميع النصال التي قطعت روحي أشلاء، أشلاء، مع قدوم أمراض الشيخوخة المبكرة (ديسك) في الظهر، كوليسترول في الدم، آلام في المفاصل، وسمنة! وذلك المرض اللعين.
والنظر والسمع ينتظران في المحطة القادمة! يا للقهر يمضي... وتبقى الآلام.
تماثيل من شمع تقبع قبالتي!
حتى القلم يرفضني في الظلام، حينما توقظني الأفكار."

*

في الغربة تنأى الذاكرة عن فرح ربما تعثر بساحة زهير، وتتسمر أمام عينيه سوادات الأيام، وجراحات الليالي.
ويبقى الأخوة طرفي خنجر الرحم، في الصدر، والظهر، والخاصرتين. من بين دموع كشفتها نجمة صباح ينتفض عن بساط الغربة ويصرخ:
"لا لوم بعد اليوم...
أيها المتكئان على حرابكما المغروسة في صدري، لم تصادرا حزني؟ ولا يسعدكما شيء أكثر من تأوهاتي؟
لم ترفضا همسي بفحيحكما وعقلانيتكما الممهورة بالخيانة! ألم تأكلا طعامي وتشربا شرابي!
ألم تدوسا على قدس أقداسكما باسم القداسة نفسها!

أين العيون منكما ترى الدهشة واللعنة في عيون مشاهديكما! أين الآذان التي نسيت الأذان! أين أنتما من ظل ينير ومن شر قادم مستطير!

أنا لن أسكت بعد اليوم! أنا لن أصمت بعد اليوم!

أنتما السجن والسجان! أنتما الحسنى المضمخة بالألم!

نزعت أغلال الرحم إلا ما أوصى ربي! نزعت أصفاد الدم الملوثة!

فانزعا عباءات الخزي الراكب حقيقتكما إن عرفتماها!

انزعا الزور في ساعات أيامكما السوداء كالقبر البهيم .

لا لوم بعد اليوم!

حرابكما ما تزال في خاصرتي، ولن أتأوه! ليس كرامة لكما بل لأنني تعودت الألم!

نصالكما مست روحي يوم رأيت بغشاوة الطيبة طهركما المتفسخ عن عهر!

اسمحا لي آلي! بالصراخ بوجهكما . أنا ما عدت بعد اليوم آبه لكما!

تمسحا بالدين الذي تشاءان! تمسحا بالمال الذي تكنزان!

تشدقا بما لديكما فهو ليس لكما ولم تعملا به!

العلم نور لو تدريان! ينير من له عقل يستنير فقط! القرآن شاهد يوم الدين، فويل لحملة الأسفار من ويل!

سأرتدي سروالي وقميصي وأسوح في عالم الكلمات! وأترك لكما عباءاتكما وتقواكما المشبعة بالمال المسروق من براءة السنين!

وأترك لكما دواوين البوح على جدران الزمن!

أوان الصمت قد مضى فويل للآبقين!

*

عائد إليكِ، يسبقني الفؤاد، عائد بعدما اجتاحني الشوق والحنين، فضميني إلى صدرك، أتنشق عبيرك، تسكرني رائحة تعرقك، تضوع روحي في ثناياك، وأغفو، أود ألا أفيق من شغف حلمي، يروح بي في آفاقك، دعيني ألثم تراباً ينتمي إلى وقع أقدامك.

التعب يهدني، الشيخوخة تقتحمني، بعيد عنك، بعيد عن هواء الحياة.

بين خصلات شعرك الأسود الطويل، الطويل. دعي أنفي، أناملي، جفنيَّ، دعيني أضيع في كل الثنايا، أختفي عن الوجود وأغيب فيك، في هضابك البعيدة، في الوديان والخلجان، في الجبال وعلى حدود البحر، في الغابات وفي ضجيج المدن. دعيني حبيبتي يوماً أثبت انتمائي إليك. دعيني أعلن للملأ هويتي، وتاريخ ميلادي، دعيني أعلن أن ترابك سيضمني وليس تبر الغربة والوحشة والفناء.

دعي فيك ينابيعك يرويني رذاذها، حقولك تمن عليَّ ببعض غبار قمحها.

بعثرتني الغربة فاحضني رفاتي المتنفسة هواءً خانه الزمن.

أشفقي عليَّ قلباً بنيت فيه الحب، وعندما صار بحراً، قلْتِ: "لا أحب الملح".

صار بنقاء ثلج القطب، قلتِ: "لا أحب البرودة ".

صار بدفء التنور ليلة الشتاء القارسة، قلتِ: "أكره الأفران".

دثريني بغيومك، تكفيني لحاف العمر. أشواكُكِ منذ البَدءِ فراشي، ولمَّا رضيَتْ بي، رضيتُ. دعيني أعود ببعض الشموخ كما كنتُ وكنتِ. دعيني أذرف دموعي تحت أوراق خريفك. دعيني أدفن رأسي تحت غبار شوارعك. دعيني أموت، أموت، أموت بين جنباتك. عرفوك مني عطر الكون، بهاء الضياء، حلم الشعراء. آمنوا بك فيَّ، اعتنقوا أوثانك التي زينتها لهم.

أنت المنارة، فلم تحرقيني بنار الوجد، نار الوحدة والغربة والكرب الذي لا يموت.

بلادي، شعلة نهاري، حلم ليلي، أعود إليك وعلى جبيني إكليل النصر والفداء.

بلادي عدت إليك محملاً بمباهج الفوز، عُلِّقتْ على صدري أوسمة الحرب، علقي برقبتي بعض مؤونة لأبنائي، بعض كرامة أشهرتها بعيداً عنك وحرمتني منها.

سحبتْ غربتي شبابي، شطبتْ عني كرمك وحنانك، وأشعلت في أضلعي نار القهر والحب والضياع والكبرياء.

أعود من ذل الغربة أرجو بعض كيان، فتسحقني على بوابتك أحذية السفهاء، تكاد ترميني عدا ادخاري في سلة مهملات، كما رمتني أبنيتك الشاهقة في حضيضها.

بيت الأب غدر بي. شنقوني، وأدوني، وليتهم لحدوني قبل ذلك. سلخوا عني جلد الوفاء بنكرانه.

وأستسيغ الغصة، أجمعها، تتراكم جماعات، جماعات، تخترق فيَّ كل الأحشاء، وأضحك، أضحك كالعاشق في كنف الحبيب، وأصرخ، يملأ صراخي الكون:" أنا في وطني، في وطني، في وطني".

تستبيحني العبرات، تجتاحني، تملأ كياني وكلَّ أجوائي، فأهرب إلى غرفة أخرى، غابة أخرى، أفرغ بعض أثقال القلب على مخدة، على مناديل كانت الجفاف وصارت كما وجدي سيولاً.

تقتلني ذكرياتك يا وطني، أموت في اليوم مليون مرة، وأعيش لأني أعرف أن الموت بحبك حقك علي.

تتقمصني جراحاتي في المصطلحات، يدَّعون أن الحياة طفولة وشباب ورجولة وكهولة...

أكره المصطلحات المجهولة يا أبي الشيخ الورع التقي النقي، يا أخي يا "وارث" كل صفات الأنبياء !

يا أخي يا قاتل الحسين تضرب صدرك فيه، يا من ترفعتم عن نصرة عقائدكم فيَّ، فصار انتمائي لنسلكم الشريف عاركم.

أبي لقد واروك قبل موتك، فكنت في ذلك أعجب ما كنت، لم تكن أنت لي كما قلت، أم هو بعض من عقوقهم!

أنت الشرف لي كنت، الوطن والوجد وحبي وقلبي ولعنتي وكل سكناتي الجارحة، وهفواتي القاتلة، ودموعي التي تفجرت فيَّ شيخاً، ولطالما حقنتها إباء عرَّفوه غباء، لطالما رفعت راياتكم فوق رأسي الكسير بشموخ وكنْتُ الحقير.

آمنْتُ بحقارتي كي تتربعوا على قمة ذاك الشموخ، آمنت بالوضاعة كي تزينوا عرش الكبرياء.

وها أنا ذا أمام نفايات العالم أستجدي كرامتي فترميني قططهم بشرر العيون، فأبتعد وجلاً، وتنشب في هلعي مخالبَ لم تستخدمها، الشبع شعارها، والغربة المكروبة بحسد الأهل شعاري.

يا وطني. يا حبي، يا قبري وجنتي والخيال الذي أبقى فيه أسيح. هل ستقبلني ذات يوم بواباً على إحدى العمارات، أستجدي التحية يردها عليَّ بنظرةِ عطفٍ هواؤُكَ.

مللت الغربة، كرهت الغربة، كرهت القرش المغروس في روث البشر والبقر أستخرجه بفمي، لأهديك إياه على بوابة الحدود كي ترضى عني.

آه يا وطن الغرباء، تطرد أحبابك.

آه يا وطن الأحباب تَكرَهُهُم فيك.

آه يا قلبي الرابض هناك فوق تلة، القابع هناك تحت دالية، وشجرة تين خائرة.

آه يا وطناً زرع فيَّ كل شيء جميل وتركني في عراء الأوطان بلا سمل يستر عورتي.

ما هكذا رضعناك في الحليب.

ما هكذا عشقناك، وشممنا كل لحظة فيك، فكنتَ نحن، ولم تُرْدْنا منكَ بعضَك.

يا وطن الآه.

يا وطن الآه رحماك، رحماك.

حماك ربي!

احم منا بعض ثوان نتابع الضحك في كيانك ولو كذباً.

دعنا في ربوع الهيام نضيع كالعصافير، كالجنادب، كالذي فيه رئتين.

*

عينان تبثان الوله وتذرفان الدموع.
وحدها جدران بيضاء تصمت، ليس لجدران الغربة آذان.
تلتصق عليها شهقات ونظرات وآلام ذكريات...وتكتم السر.

المسرب رقم...

الفقد الأخير

لم يكن رجال الحدود غير ودودين، بل استقبلوه بكل محبة وود.
يا للمفارقة! كم كنت تكيل لهم الاتهامات يا زهير...
ابتسامة هنا وأخرى من هناك...
"الحمد لله على سلامتك يا دكتور"...
ويعرفون أنك دكتور أيضاً... ربما ظنوك طبيباً عائداً.
لكنه الفصل شتاء، وها أنت تعود ببعض محتويات بيتك. كالنازح، أو المهاجر.
يعرفون بخبرة السنين أنواع العودات.
ربما لاحظوا انكسارك. فلم يرغبوا بمزيد من الألم.
وربما جئت في وقت راحتهم؛ فلم يرغبوا بإزعاج أنفسهم.
انتهت تفاصيل الحدود بروتين سريع.
تغيرت فعلاً يا وطني.

سأصدق إعلامك الرسمي منذ الآن فصاعداً، سأصدق كل كلمة قيلت من صحفك وإذاعاتك ومسؤوليك وتجارك. المطر أيضاً يستقبلك يا زهير.
ما أروعك يا مطر الخير في بلادي، حتى الصواعق والرعود تتناغم فيك بموسيقاها السيمفونية الصاخبة.

تتلون طرقاتك بجمال غريب، يا وطن.

شرد زهير بألوان قوس قزح على أنوار السيارات العابرة أمامه .رذاذ السيارات التي تسبقه يعلو فوق زجاج سيارته، نقياً تارة، وتارة طينياً.تعبت مساحات السيارة، ولم تتعب أنفاسه من تنشق هواء الوطن.أنوار دمشق بدأت تظهر من بعيد. قاسيون، جبل الوطن الشامخ، يبتسم بأنواره الليلية، مجرة أخرى، عقد لؤلؤ منثور في حضن الجبل.

ضجيج السيارات وأصوات أبواقها العالي، فوضى السير، اختراق إشارات المرور الحمراء وشتائم السائقين.

كل ذلك من سيمفونية دخلت سمع زهير بعذوبة وحنان وحب وعشق.

هتف زهير الطفل فيه:

"أعشقك يا وطن، أعشق أرصفتك العتيقة المحطمة، وأعشق مطبات شوارعك وبركها الموزعة ماءها على فساتين الصبايا.أعشق صداقة الشرطي والسائق، البقال والموظف، باصات النقل المتهالكة، محطمة النوافذ والأنوار.

أعشق ضجيجك وزعيق الناس...و.

استيقظ زهير متألماً، حاول تحريك رجليه فلم يفلح.
فتح عينيه، كانت زوجته تبكي بفرح فوق رأسه. غمرت رأسه بشعرها الأسود الطويل وهي تقبل وجهه وعينيه:
"الحمد لله على سلامتك يا زهير، شكراً لك يا رب شكراً لك يا رب...

- ما الأمر؟ هل أنا في مستشفى؟؟
- نعم، الله ستر، جميع من رؤوا السيارة قالوا: من المستحيل خروج أحياء منها. الحمد لله على سلامتك. الحمد لله.

فحص الطبيب جسد زهير وأعلن للجميع:

- سنجري مزيداً من الصور الشعاعية. ثق بربك يا زهير، قد نستطيع تجاوز الشلل النصفي. مسألة وقت، وأنت رجل مثقف ستساعدنا وتساعد نفسك بصبرك وتعاونك معنا. أصبح الطب متقدماً جداً في بلادنا.

*

ها أنت في وطنك الأول، حيث سقط رأسك للمرة الأولى، وما تزال ترفعه رغم آلاف السقطات المتتالية.
لم تكن الفاعل بالسقوط الأول، لذلك عليك أن تؤمن بهذا المصير.

ألم تبصر بعد أن الارتفاعات التي سموتها لم تكن سوى مكامن سقطات أعنف، وأشنع؟

لو بقيت في "المطب" راعي بقرها أو ماعزها أو دجاجك، لما كان ألمك بهذا المقدار.

لو رضيت بدراسة الهندسة في بلدك، أو الطب لما كنت بهذا الوجع.

حتى لو اتجهت لما كنت تحب، التمثيل أو كتابة الشعر أو الصحافة، لما تجاوزت حدود الطموح المنتهية أمام حاجب المدير، أو حنان السكرتيرة.

لا تقل إن القميص الأحمر سر مصائبك، إنه لون قلبك وأنفتك وسؤددك الذي ما تزال تدفع الأثمان بسببه.

جموحك الذي كبا بك مرة تلو مرة.

كبرياؤك وأنفتك كاسرا عظامك. والنتيجة ماذا؟

الشيب يلف رأسك وما تزال تعتقل الشباب في القلب...

ضباح الضباع في الوادي المقابل يتحداك، وصراخ الثعالب يسلبك هدوءك المصطنع.

كرسيك المتحرك ديناميكيتك الوحيدة في هذا العالم.

زوجتك، ابنة عمك، هي الوحيدة التي بقيت إلى جانبك. رغم عجزك الجنسي والفكري والعاطفي.

حتى الطرفة التي كانت تكسو أحزانك بلت وتهرأت وشاخت، وصرت تنسى لون أسنانك في مرآتك المهشمة مذ نذرت الفقر حال وصولك حياً إلى بلدك الحبيب.

عصبي المزاج بجبروت لم تكنه يوماً عندما كنت قوي البدن والصحة والعنفوان، وأنت أضعف من طفل يحبو الآن.

الطفل يستطيع السعي نحو هدفه حبواً، أما أنت فلا شيء، زوجتك ساعداك ورجلاك وأحياناً عيناك.

ينمو الطفل ويكبر مع أحلامه وآماله، أما أنت فتضمحل كطموحاتك.

يبكي الطفل مطالباً بحقوقه إن جاع أو اتسخ أو تألم. أما أنت فتبكي كل شيء إلا الجوع والقذارة وألم الجسد.

وتبكي أمك!

لا تدري لماذا، حباً بها أم شوقا لها، أم رحمة عليها؟ لا شك أنك تبكي حنانها أيها الضعيف المستكين المتخاذل كطفل صغير أفاق للحظة من لعب أو غفلة، ولم يجد أمه قربه، فخال العالم وحوشاً ضارية تهم بافتراسه.

*

أنت تعتقد ذلك أيضاً، أبوك تركك بين شدقي أخوتك، وحاجتك.

أهلك عبدوا القرش وتبعوه ونسوك، ألا تعلم أن الدنيا يعيش فيها القرش الآكل فقط!

تعبت ودفعت أعصابك في غرباتك، إلى جيوب الأطباء والنصابين.

تغزلت بأصدقائك حتى ظنتك زوجتك خائناً من الطراز الرفيع، وعندما قعدت في كرسيك ذي العجلات هجروك.

وحدها وفية ابنة بلدك، تضحي بشبابها وجمالها وأنوثتها من أجلك رجلاً لا رجولة فيه سوى صوته العاتي وجراحاته المنشورة على جدران المكان.

تصبح أمام ضيف عابر ملاك الحب وآية الرفعة، ولا تثور، بل تجد مبرراً لكل مصائبك. تتهم ذنبك وحكمة الرب بمحوها في حياتك. وفي أحشائك جوع للرذيلة والفجور والصراخ المدوي الفاضح كل دان وبعيد.

لا يستطيعون قراءتك، فسبحتك صارت كسبحة أخيك الفاضل. وكتب الشريعة والفقه والثقافة تحيط بك وتكاد تسقط عليك، تقرؤها بنهم أحياناً وتقذف بها خارجاً بما تبقى لك من قوة يدين أحياناً أخرى.

أيها الأسير استسلم، فأنت، ربما تقبع في مسربك الأخير، لا تسخر، قد تأتيك فرصة أمل جديدة، فالطب كما وعدك الطبيب قبل عشر سنين متقدم جداً، والأبحاث الطبية ستحيي أعصابك من جديد، وتغذي شرايين ساقيك –هيولاك لتنهض كالفينيق، كنت تستنهض الكسالى واليائسين، قم واستدر لامرأتك القادمة من خلفك، لا لترميك في الوادي حيث الضباح قريب، بل لتعيدك هيكل رجل إلى البيت، قد يخيف لصاً أو يقاضي جاراً قد يعتدي عليك.

فكر بالصليب في عينيك إشارة موجبة، وأعد تعديل معاييرك.

يحسدك آلاف على عجزك الجسدي، لن ترى الحفر في الطريق، لن ترى أرصفة المدينة تكسر أرجل الساقطين في دهاليز ممراتها، لن ترى قاذورات الليل تلقي تحيات النهار والليل عليك.

يحسدك من له رجلان، فارحل بعينيك المغلقتين بلا دموع في أرجاء تشارلز ديكنز وأرسين لوبين وتحمل بعض مشاق جان فالجان. فقد تستعيد طفولة أنقى في خيال اصطفت مساربه قوس قزح يعيد بهاء السماء بعد مطر حبيب.

*

اسمح لي سيدي الكاهن أن أعترف لك، وقبل بوحي أعترف أنني لا آبه لك، فقد تكون شرطياً في ثياب كاهن، وقد تكهن الآن علي وتتكهن بما يعجبك فتسطر ما تشاء لمن تشاء. اعذر وقاحتي فهي صرختي الأخيرة فقد تغفر لي صمتي طوال ستين وثلاثة من السنين كانت جوفاء مثل جرة ماء خاوية، إلا من صدى همومي.
اسمح لي أن أعترف بفشلي الذريع، وأن أفشي سر صمتي المقيت على جميع الأصنام التي ركعت أمامها باسم التجاهل عن كونها أصناماً تضر وقد تنفع.
اسمح لي أن أعترف بخيانتي لنفسي التي عشقتها دوماً وحرمتها من عشقها دوماً.
اسمح لي أن أعترف أن كل قطرة دم سالت وسقت بعض تراب الوطن المدفون في كتب الحب كانت مجرد ماء بلون أحمر صنعتها أفلام بوليود.
اسمح لي أن أعترف أنني فعلاً أعشق قميص ابن المختار الأحمر وأن هذا القميص الذي خلته دمر حياتي هو أجمل صنم بعته لصديقتي، بسندويشة هوت دوغ، أفرغْتُها من اللحم لها وأنا أتلذذ بمشاهدة نهديها يرقصان خلف دمائي الشابة التي حرمت الجنس لأنه يخص عشتار فقط.

أعترف أنني فشلت بالبقاء حياً أفخر بمجد مسَّاحة رِجلي الوزير، فرفستُ كالبغل نعمةَ حورياته المومسات وليالي أنسه الحمراوات.

أعترف أنني تغابيت عن الحب ولعنته لعنة مخصي كره جميع نساء القصر، لأنهن كن شتاء سان بطرس بورغ، في حر مكة، وكن مترو موسكو في أنفاق عرفات ومنى.

أعترف للمرة المليون سيدي الكاهن أنني كنت أحترمك لأنك كنت أذناً لكل مستطير مثلي تسمع ولا تملك لسان الشرطة أو قلم المخبرين.

أعترف سيدي اللعين أنني لعين مثلك، ربما كنت ابنك بالرضاعة، فأنا أعترف لك على فراش الموت، كما ستعترف لي يوماً على حبل المشنقة.

سيدي الجليل: يا قلم الرصاص بالطربوش العثماني الأحمر المنتصب كأذن حمار واحدة على ممحاتي البيضاء القديمة ذات الرائحة الشهية؛ اسمح لي أن أثرثر عبثاً في قُمرتك الخاوية من كل رفوف الموبقات عن مساراتي العديدة ومساربي الشريدة، وأنت إن خالفت شرع القضاة في كنيستي ولم تنشر روايتي فلن تسلم من بذاءتي التي استيقظت للتو مع اعترافي هذا قبل غوصي في باقي مسارب التيه التي أودت بي منك ثم إليك.

أثارت عبارات الاعتراف القمامَ الصغير الذي طرد من المدرسة الإعدادية لعدم استيفاء الموجه التربوي منه حصته الشهرية من السجائر، ومن أين لابن الشهيد الذي فقد والدته الصبية تحت فخذي أحد مدعي حماية الوطن حتى صارت قطعة سكر ذائبة، أمام عيني المراهق المكلوم.

جلس اليتيم على علبة زيت صدئة يقلب رواية "مسارب التيه" التي عثر عليها بين كتب مكتبة مرمية في زاوية بعيدة من مكب نفايات المدينة، متخذاً من كومة قمامة ساتراً يقيه نظرات القمَّام الأكبر الذي وظفه قبل أسبوعين في تجميع النايلون من المكب مقابل وعد لا يشك بكذبه بدفع أقساط المعهد الخاص بداية العام القادم.

الكاتب في سطور

- مواليد سورية 1960
- تدرج في مدارس حمص وحلب وطرطوس.
- حاز على ماجستير في الهندسة الالكترونية من الجامعة التقنية في فارنا؛ بلغاريا – 1986
- إجازة في اللغة الإنجليزية–ترجمة. من جامعة البعث سورية.2019
- درس الصحافة والكتابة الصحفية بالمراسلة مع The Writers Bureau. Manchester. UK
- حصل على دبلوم عالمية في الإدارة العامة وإدارة الأعمال من كامبردج – بريطانيا – بالمراسلة 2004
- حصل على دبلوم لغة انجليزية احترافية من كامبردج – بريطانيا2004
- عمل في الإذاعة والتلفزيون في سورية والسعودية 1986-2006
- درَّس في كلية الهندسة المعلوماتية – في جامعة البعث
- عمل مديراً إدارياً في شركة خاصة.

- مهندس استشاري في الهندسة الالكترونية
- مهندس استشاري في الهندسة الكهربائية.

المؤلفات المنشورة

1- ابن العالم – شعر باللغة البلغارية – فارنا 1985
2- كنة أبي غسان – قصص قصيرة – 1990
3- اثنا عشر زوجا من العيون – المعلمة اويشي – رواية – ترجمة عن البلغارية 1995
4- سر الهارب من البوليس – نصوص للفتيان – ترجمة عن الانجليزية – 1995
5- سميرة الصغيرة – حكايات خيالية للأطفال – ترجمة عن الانجليزية – 1996 /2005
6- سكرتيرة – قصص قصيرة - 1996
7- في فضاء الصمت – ترجمة عن الانجليزية 2006
8- أنطولوجيا القصة العربية – بالاشتراك مع الدكتور عبد الرزاق غوردو – المغرب.
9- ماري – قصص قصيرة – 2014

10- دليل الموارد البشرية – ترجمة عن الانجليزية

11- دليل كاشف أعطال الكابلات الكهربائية المطمورة – عن الانجليزية

12- دليل أجهزة التحكم الصناعية – ترجمة عن الانجليزية

13- الدارات الالكترونية - جامعة البعث.

14- الشجرة السحرية ترجمة

15- كيف أصبح عدنان مجتهدا، للأطفال.

16- شموس وأصدقاؤه، للأطفال.

17- لجة الألم، قصص.

18- كتابات على جدار الزمن.

19- طقس بارد، رواية مترجمة عن البلغارية.

20- تطور العلوم الحديثة. ترجمة عن الإنجليزية.